لطائف البيان
في تفسير القرآن

تفسير سورتي يونس وهود



تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير سورتي يونس وهود

تأليف أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

لطائف البيان في تفسير القرآن

تَفْسِيرِ سُورَتَي يُونُس وَهُود

العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: سورتي يونس وهود.

المؤلف: أ.د.حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (187 صفحة).

الطَّبعة: الأولى، 1447هـ - 2026م.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (126) 2024م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

النَّاشِر

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFEQ.S.P

782 16 12 14

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير سورتي يونس وهود

تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

بسم الله الرحمن الرحیم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وإن الاشتغال بتدبّر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسموات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، وقد يسّر الله لنا إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عددٍ من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار - جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

وكانت تلك الدروس عبارة عن درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يوميٍ بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالبًا، مع أخذ الدروس والعِبر منها بقدر الإمكان.

وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل أن يتم تفريغها نصياً من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق بعض

النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة كتب ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، **وسميته: "لطائفُ البيان في تفسير القرآن"**.

وقد تم ولله الحمد إنجاز الكتاب العاشر من هذه السلسلة، والذي يحتوي على تفسير سورتي: (يونس وهود).

ويسرّني هنا أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها وراجعوها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

كما أنبّه القرّاء الكرام إلى أننا نفتح صدورنا لملاحظاتهم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرّض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، أو الإيميل: (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعاً، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

إب الخضراء – اليمن

1 ذو الحجة 1447هـ

تفسير سورة يونس

تفسير سورة يونس

تفسير المقطع الأول من سورة يونس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ
ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ
مُّبِينٌ ٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ
مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيۡهِ
مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤ هُوَ
ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ
ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ
بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا
كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا
سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ
ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ
يَعۡمَهُونَ ١١﴾.

شخصية السورة:

سورة يونس؛ سورةٌ مكية[1]، **ومن مقاصد السورة:** بيان نبوة محمد ﷺ بالبراهين والأدلة، وتفنيد شبهات المكذبين حولها، وتهديدهم ووعيدهم بالعذاب الشديد.

ابتدأت بقول الله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾، وهي من السور التي بدأت بالأحرف المقطّعة، **والراجح** أنها من أحرف الهجاء التي تدل على إعجاز القرآن الكريم وبلاغته، والغالب أن هذه الأحرف يأتي بعدها ذكرُ القرآن الكريم، وقد كان العرب أهل فصاحة وبلاغة، ونزل القرآن بلغتهم التي يتكلمون بها، ولم يستطيعوا أن يأتوا بسورة مثله، و"**تلك**" اسمُ إشارة، تشير إلى ما سبق من آيات القرآن التي نزلت قبل هذه السورة، وما نزل في هذه السورة من آيات، **والحكيم** وصفٌ للكتاب وهو القرآن[2]، فهو مُحكَم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفيه أحكام وحِكم مُتقَنة.

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾، **الهمزة** للاستفهام الاستنكاري التعجبي[3]، **والمقصود بالناس** كفار قريش، **والمعنى:** كيف يتعجب كفار قريش ويستغربون من بِعثة محمد ﷺ، ونزول الوحي عليه،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 245).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 102).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 83).

وإرساله رسولاً إليهم؟! وهو من أنفسهم ومن أهل ديارهم ويعرفونه حق المعرفة، ولا وجه للعجب من ذلك، فالتعجب لا يكون إلا على شيء غريب جاء على خلاف العادة المُطّردة عند الناس، فهل بِعثة محمد ﷺ على خِلاف العادة؟ لا، فقد بُعث رسلٌ من قبله كثير، وإنما تعجُّب كفار قريش كيف تكون النبوة والرسالة لرجل فقير، ولم تكن في أكابر القوم وأغنيائهم[1]، **كما قال عنهم:** ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[الزخرف:31]. فكانوا يتوقعون أن تكون لشخص غير محمد ﷺ، **فرد الله عليهم بقوله:** ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام:124]، وبيّن مهمته وهي إنذار الكفار منهم وتخويفهم بالعذاب إن استمروا على الكفر، وتبشير المؤمنين المستجيبين بالأجر والثواب، بأن لهم مطلق الجزاء الحسن على العمل الصالح الذي قدموه بين أيديهم[2]، **وقدم الصدق هو:** المنزلة الرفيعة[3]، وإنما أُضيفت قدم إلى صدق لتعظيمه من جهة، ومدحه والثناء عليه من جهة أخرى، فإن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يُبشرهم على لسان رسوله ﷺ بالجزاء العظيم والأجر الكبير والثواب الجزيل والمكانة العالية عند ربهم، بسبب إيمانهم واستقامتهم على دينه، وأخبر عن موقف الكفار منه بعد تعجبهم من بعثته، بأنهم كذبوه، ووصفوه بأنه ساحر متمكّن من عمل السحر، وذلك لما كانوا يجدونه من تأثير للقرآن على من استمع إليه، فيؤمن به ويترك أهله الكفار ويفارقهم، فشبهوا القرآن

(1) ينظر: تفسير الرازي: (17/ 185).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:641).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 6).

بالسحر الذي يتم به التفريق بين المرء وزوجه، وهم في هذا الاتهام كاذبون آثمون لأنهم يعرفون السحر وصفات السحرة، وأن محمداً ﷺ بريء منها، ولكنهم ألصقوها به لمنع الناس من الإيمان به، وهذه عادة متكررة عند أعداء الإسلام قديماً وحديثاً، إذا أرادوا أن يُبعدوا الناس عن الدين وعن الخير وعن الاستقامة وصفوا الدعاة إليه بأوصاف مُنفّرة عنهم، مثل ما تسمعون اليوم من ألفاظ منفّرة يوصف بها المشايخ والعلماء والدعاة لأجل أن يخاف الناس منهم، ويبتعدوا عن الاستماع والاستفادة مما يدعونهم إليه من خير.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾، **ثم أخبرهم الله** سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن دلائل عظمته وقدرته في الخلق والإيجاد، فإن الخالق العظيم الرزاق المالك هو ربكم الذي خلق هذا الكون وأوجده، وهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وهو الذي خلق السموات والأرض في قدر ستة أيام من أيام الدنيا[1]، **والأيام هي** المعروفة عند الناس، **وهي** أربع وعشرون ساعة، لأن الله خاطب الخلق بما يعقلون؛ لأن الخلق كان قبل أن تُوجد الأيام، فلم يكن ليل ولا نهار آنذاك، **والاستواء في اللغة:** العلو والارتفاع، ثم استوى استواءً يليق به، ولا يجوز السؤال عن كيفيته، قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة[2]، **والعرش هو** أعظم المخلوقات

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 104).

(2) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: (3/ 441)، برقم: (665).

وسقفها[1]، وهو سرير المُلك، والتدبير هو تصريف أمور الكون وتقديرها، من الإحياء والإماتة، والرفع والخفض، والصحة والمرض، والغنى والفقر، ونحوها، ولا يسمح الله بالشفاعة لأحد من الخلق إلا بعد أن يأذن له ويرضى عنه، ونفي الشفيع رد وتوبيخ للمشركين الذين كانوا يعتقدون أن أصنامهم تشفع لهم عند الله[2]، وأن من يفعل ذلك هو الله الخالق المدبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فوحّدوه ولا تُشركوا به شيئًا، أفلا تتعظون بهذه الأدلة والبراهين، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع لهم؛ لأنهم يعبدون الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر![3].

وقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾، ثم أخبرهم أنه يبعث الخلق بعد أن يُميتهم، ويحشرهم إليه جميعًا، وأن وعده هذا كائن لا محالة، وواقع حقًا لا شك فيه ولا مِرية، وهو سهل عليه، فقد أنشأ الخلق من العدم، وهو القادر على إحيائهم بعد موتهم، فإن الإعادة أسهل من الإنشاء، والحِكمة من ابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم في الدنيا بالعدل[4]، فلا يُظلم يوم القيامة أحد، فيُجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالنعيم المقيم في الجنة، ويجازي

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 247).
(2) ينظر: تفسير القرطبي: (8/ 308).
(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 482).
(4) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 7).

الكافرين بالشراب من الماء الحار الذي اشتدت حرارتُه، والعذاب الأليم في جهنم، ويجمع لهم بين أنواعٍ متعددة من العقوبة، بسبب كفرهم بالله وإعراضهم عن الإيمان به في الدنيا، وخص الشراب من الحميم بالذكر من بين أنواع العذاب الأليم؛ لأنه أكره أنواع العذاب إلى النفوس[(1)].

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾، وهو الذي سخّر لهم الشمس، وجعلها مصدراً للنور والحرارة، وجعل في القمر نوراً لا حرارة فيه، بل منعكس من ضوء الشمس، فالضياء أعظم من النور[(2)]، لأنه يحتوي على الحرارة والنور، **والضمير يعود** إلى القمر، فقد قدّره منازل، والمنازل: جمع منزل وهو مكان النزول. **والمراد بها هنا:** المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر، وهي ثمان وعشرون منزلة، بعدد ليالي الشهر القمري[(3)]، **وبيّن الفائدة من تقدير القمر منازل**؛ لكي نعرف بداية الشهر ونهايته، فنعرف عدد الأيام والأشهر والسنين، فنحسب بها الآجال والعِدد، **واسم الإشارة** يعود على ما سبق ذكره، وهو خلق الشمس والقمر، وجعْل القمر منازل، فإنه خلق ذلك كله بالحق، الذي لا عبث فيه ولا باطل، وبيّن ووضّح الآيات الكونية والآيات الشرعية، ليستدل بها أهل العلم على عظمة الله وقدرته وفضله عليهم. **وفي الآية إشارة** إلى أن معرفة ضبط التاريخ نعمة أنعم الله بها على البشر.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 93).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:644).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 95).

وقولــه: ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾، ومن الآيات الكونية الواضحة التي يشاهدها الإنسان؛ تعاقب الليل والنهار، إذا جاء هذا ذهب هذا، لا يتأخر عنه شيئًا[1]، وإذا زاد هذا نقص هذا، ومن الآيات الكونية ما خلق الله في السموات من كواكب ونجوم ومجرات، وما خلق في الأرض من جبال وتراب وأشجار ودواب وغيرها، وفي ذلك كله علامات وحجج وبراهين لقوم يخافون الله، ويتقون سخطه بالإيمان به والعمل الصالح.

وقولــه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾﴾، ثم أخبر عن الكفار الذين لا يُؤمنون بالآخرة، ولا يخافون البعث ولا عذاب الله، ولا يرجون ثوابه[2]، بل أحبوا البقاء في الحياة الدنيا، وسكنت نفوسهم إلى العيش فيها، وأعرضوا عن آيات الله الكونية والشرعية وكفروا بها، وحلت بهم الغفلة حتى نسوا الدار الآخرة، فمصير هؤلاء القوم والمكان الذي يأوون إليه في الآخرة هو النار، وبئس القرار، بسبب أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا. **وفي الآية إشارة** إلى حال كثير من الكفار اليوم الذين ركنوا إلى الدنيا، واجتهدوا في التفنن في عمارتها، والتمتع برغد العيش فيها، وتركوا العمل للآخرة.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 249).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (2/ 423).

تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾، **ومن طرائق القرآن** أنه إذا ذكر الكفار وعقابهم؛ ذكر المؤمنين وجزاءهم، من أجل الاتعاظ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأنهما متلازمان، ورتّب على ذلك حصول الهداية لهم في الآخرة، بسبب إيمانهم في الدنيا، وذلك باجتيازهم الصراط المنصوب فوق متن جهنم، بنور عظيم وسرعة كبيرة، حتى يدخلوا الجنة[1]، فإذا دخلوها؛ أسكنهم الله في قصورها العالية التي تجري من تحتهم الأنهار المتنوعة، ووصف مكان إقامتهم بجنات النعيم الدائم التي لا نصَب فيها ولا تعب.

وقوله: ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾، وقد ألهم الله أهل الجنة التسبيح والتحميد فيها كما أُلهموا النفس في الدنيا[2]، بالرغم من أن الآخرة لا يوجد فيها تكاليف شرعية، ولكنهم يفعلون ذلك ليستمتعوا بالذكر الذي اعتادوا عليه في الدنيا، أو أنهم إذا أرادوا واشتهوا شيئًا قالوا: سبحان الله، فيأتيهم الولدان بما تشتهيه أنفسهم، فإذا أكلوا أو شربوا، قالوا: الحمد لله[3]، فإذا التقوا، **قال بعضهم لبعض**: السلام عليكم، وإذا لقتهم الملائكة حيّتهم بالسلام، فحياتُهم كلها تنعم وتنزيه وذكر وثناء وسلام.

وقوله: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 250).

(2) ينظر: الحديث في: صحيح مسلم (4/ 2180)، برقم: (2835).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 123).

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١﴾، **أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** أن من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجّل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبادرهم بالعقوبة على ذلك، كما يعجّل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه، لأهلكهم[1]، لأن طبيعة الإنسان أنه عجول قليل الصبر، حيث يدعو على نفسه وعلى أولاده بالشر في حال غضبه ونزول المصائب عليه[2]، **ولكن من رحمة الله بالخلق** أنه غالباً لا يستجيب لهم دعاءهم عند غضبهم، ودعائهم على أنفسهم وأولادهم، ولو فعل بهم ذلك؛ لنزلت عليهم المصائب في الحال، وانتهت فرصة الإمهال المكتوبة لهم في آجالهم فهلكوا، **ولذا جاء النهي عن ذلك في الحديث: "لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاء، فيستجيب لكم"**[3]، واقتضى نفيه تعجيل الهلاك عن الناس أن يترك الله الكفار في عماهم وضلالهم يترددون عقوبة لهم، واستدراجاً لهم[4]، والعَمَه التحيّر[5] وكثرة التردد في فعل الشيء، والكافر غالباً يعيش في حَيرة وقلق واضطراب، لأنه لا يعرف الغاية من خلقه، وإلى أين مصيره.

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:359).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 251).

(3) صحيح مسلم: (4/ 2304)، برقم: (3009).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 108).

(5) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 9).

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – إثبات نبوة محمدٍ ﷺ، وتعجّب كفار قريش منها.

2 – بيان الله لخلقه بعض دلائل قدرته في الخلق؛ حتى يقرّوا له بالألوهية وحده لا شريك له.

3 – إثبات الشفاعة في الآخرة، ولا تكون إلا لمن أذن له الله ورضي عنه.

4 – أن الله قدّر القمر منازل لمعرفة الشهور وحساب السنين.

5 – بيان أن الكفار همهم الدنيا والتمتع برغد العيش فيها، وتركهم العمل للآخرة.

6 – بيان لطف الله بعباده، حيث لا يستجب دعاءهم على أنفسهم بالشر في الحال.

تفسير المقطع الثاني من سورة يونس

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾، يُخبر الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هنا عن طبيعة الإنسان عند نزول الضر به، من مرض أو فقر أو سجن ونحوها من المصائب، فإذا نزل به شيء من ذلك عرف ربه وأقبل عليه ودعاه بإلحاح في كل أحواله، **واللام** للتوقيت[1]: أي: في الوقت الذي يكون فيه راقداً وقاعداً وقائماً من شدة احتياجه إلى ربه، وخص هذه الأحوال بالذكر لأنها الغالب على الإنسان، وما عداها يكون نادراً، وهذه هي طبيعة الإنسان البعيد عن الله، فإنه يُقبِل على الله في الشدة، فإذا فكّ الله كربته وأذهب عنه ضُره؛ مضى على طريقته التي كان عليها قبل أن يمسه الضر، ونسي حالة الجهد والبلاء، وترك الدعاء والتضرع، واستمر على كفره ولم يشكر الله ولم يتعظ[2]، بخلاف الإنسان المسلم الصالح، فإنه يدعو ربه في الضراء والسراء، **ويعمل بالحديث: "تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة"**[3]، والكاف للتشبيه، فكما زُيّن لهذا الكافر الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء، زُيّن للكافرين أعمالهم السيئة[4]، **والمسرف هو** المتجاوز للحد في الأعمال السيئة، مأخوذ من سرف الماء: إذا ذهب في غير سقي ولا نفع[5]، أما عمل الخير فلا

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 488).
(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 319).
(3) مسند أحمد: (5/ 18)، برقم: (2803)، وإسناده صحيح.
(4) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 139).
(5) ينظر: تهذيب اللغة: (12/ 277).

سرَف فيه مهما كان كثيراً.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾، **الخطاب** لكفار قريش الذين كانوا يكفرون بمحمد ﷺ، وكان يتنزل القرآن عليه بينهم، وهم مستمرون بالكفر والإعراض عنه، فأخبرهم أنه قد أهلك من كان قبلهم من الأمم السابقة، والقرون جمع قرن، وهو الطبقة من الناس الذين يعيشون في زمن واحد[1]، وكان هلاكهم بسبب أنهم ظلموا أنفسهم بالكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد أن جاءتهم الرسل بالمعجزات والحجج الظاهرة البيّنة على صدقهم، وبسبب عنادهم وإعراضهم عن الحق؛ طبع الله على قلوبهم، فلم يحصل منهم الإيمان، وبقوا على الكفر، وهلكوا عليه، والكاف للتشبيه، وما حصل لهم من الطبع على قلوبهم وهلاكهم بسبب إعراضهم، هو الجزاء الذي يُجازي به الله القوم المجرمين. **وفي الآية** تهديد ووعيد لكفار قريش إن بقوا على الكفر[2].

وقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾، **الخطاب لأمة محمد** ﷺ التي بُعث فيها، فقد جعلها آخر الأمم، فخلُفت من سبقها من الأمم، وأتت بعدها في الزمن، وسكنت في الأرض بعد تلك الأمم الهالكة، وأرسل إليهم رسولاً، وأنزل عليه كتاباً، ليظهر في الواقع ما علمه الله منهم أزلاً[3]، هل يؤمنون به؛ فيُجازيهم بالخير والأجر والثواب، أم يكفرون به؛

(1) ينظر: الصحاح تاج اللغة: (6/ 2180).
(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 489).
(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 110).

فيُعاقبهم بالعذاب والهلاك كما عاقب به الكفار السابقين لهم.

وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾، ثم بيّن حال الكفار الذين لا يؤمنون بالبعث ولا يخافون الوقوف بين يديه يوم القيامة، عند تلاوة الآيات القرآنية الواضحة التي تدل على التوحيد وإفراد الله بالعبادة عليهم، فإنهم يرفضون قَبولها والاستماع إليها، بل يطالبون محمداً ﷺ بأن يأتيهم بآيات قرآنية غير تلك الآيات التي تتحدث عن التوحيد والإيمان وتذم الأصنام، أو يبدلها بغيرها، والفرق بين التغيير والتبديل؛ أن التغيير هو أن يأتيهم بقرآن آخر غير هذا الذي جاء به، وليس فيه ما يكرهون، وأن التبديل هو أن يبدل الآيات التي تتحدث عن ذم الشرك بآيات تمدحه، والآيات التي تذم الأصنام بآيات تثني عليها(1)، وهذا تعنت وتحكم منهم، وكأنهم يُريدون أن يتنزل القرآن على ما يُريدون، ويأتي الرسول بما يشتهون، فأمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يقول لهم: أنا لا أملك التغيير للقرآن، ولا التبديل لبعض آياته من عند نفسي حتى يُوافق أهواءكم، بل أنا مأمور باتباع الوحي الذي يأتيني من ربي، وإبلاغكم به دون زيادة ولا نقصان، فأنا أخاف من الله، ولا أعصي أمره، ولو غيّرت أو بدّلت كلمة واحدة فيه، لعاقبني الله بعذاب عظيم يوم ألقاه في الآخرة.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 116).

وقولــــه: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾، **ثم بيّن لهم** أن نزول هذا القرآن عليه مِنّة وفضل من الله عليه، وتلاوته منه وهو أميّ، دليل على أنه رسول اختاره الله للرسالة، وأنزل عليه هذا القرآن بعد أن عاش معهم أربعين سنة من عمره قبل البعثة[(1)]، يعرفون نسبه فيهم، ويشهدون له بالصدق والأمانة والأخلاق الحسنة، ولو شاء الله لما اختاره ليكون رسولاً إليهم ليتلوا عليهم القرآن، ولا أعلمهم به[(2)]، فالواجب عليهم شكر هذه النعمة بالإيمان به واتباعه، فلو تفكرتم وتأملتم بعقولكم في حاله وما جاء به؛ لعلمتم أن ما جاء به هو وحي من الله[(3)]، وأن ما تطلبونه منه باطل لا يمكن تنفيذه. وفي الآية إشارة إلى أن التفكر وإعمال العقل وسيلة لإدراك الحق واتباعه، وأن معارضة ذلك بالهوى والعاطفة يبعد عن رؤية الحق واتباعه.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾، **ثم بيّن** قبح الكذب على الله، وأنه لا أحد أشد ظلماً لنفسه ممن افترى على الله الكذب، ونسب إلى الله ما لم يقل! وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك[(4)]. **وفي ذلك إشارة** إلى قبح ما طلبوا من محمد ﷺ

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:648).

(2) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص:169).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (17/ 226).

(4) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 254).

فعله، من تبديل أو تغيير القرآن الذي أنزله الله عليه، وقد كان محمد ﷺ موصوفًا عندهم بالصادق الأمين، فلم يكذب على الناس، فكيف يكذب على الله؟! **ومثله** في الحكم من كذّب بآيات الله وحججه الشرعية التي جاءت بها الرسل، فلا أحد أشد ظلماً منه، فأول الآية دفاع عن رسول الله ﷺ، وآخرها تعريض بالكفار المكذبين بالقرآن، ثم ذكر أن المجرمين لا يظفرون بمطلوب، ولا يفوزون بخير(1)، لا فلاح للمجرم في الدنيا ولا في الآخرة حتى يتوب ويقلع عن إجرامه، حتى لو شاهدنا بعض المجرمين عندهم شيء من النجاح الدنيوي، فإنه نجاح مؤقت وينتهي؛ لأن الله لا يُخلف وعده.!

وقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾، ويعبد المشركون من دون الله أصناماً صنعوها من الحجر، أو من الشجر، أو من التمر، لا تنفع من عبدها، ولا تضر من لم يعبدها، لأنها جمادات لا حياة فيها، بل هي محتاجة للحماية والرعاية ممن يعبدها، ويعتقد عابدوها أنها تنفعهم وتشفع لهم عند الله في تحسين أرزاقهم وأحوالهم الدنيوية؛ لأنهم لا يُؤمنون بالبعث والحساب(2)، فأمر الله نبيّه أن يسألهم سؤالاً استنكارياً توبيخياً لهم: هل أنتم أعلم بحالهم أم الله؟!، وهو كناية عن بطلان قولهم؛ لأن شفاعة الأصنام ليست بمعلومة لله الذي يعلم ما في

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 492).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 12).

السموات وما في الأرض، وكل ما ليس بمعلوم فهو عدم محض[1]، ثم نزّه الله وقدّسه عما لا يليق به مما يصفه به هؤلاء المشركون من الشريك ونحوه.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾، ثم أخبر عن حال الناس أول ما خلقهم، بأنهم كانوا كلهم على الإسلام، يعبدون الله وحده لا شريك له، ثم انحرفوا عن التوحيد شيئًا فشيئًا حتى عبدوا غير الله، **وفي الحديث القدسي:** **"إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا"**[2]، فأرسل الله بعد ذلك الرسل، وأنزل الكتب لهداية الخلق إلى دينه القويم، ولولا ما سبق من حكم الله في القدر بمنحهم سنّة الإمهال في الدنيا، وتأجيل العقوبة والحساب إلى الآخرة، لحكم الله بينهم في الدنيا فيما اختلفوا فيه من الحق والباطل، والتوحيد والشرك، ولكن الله أجّل الحكم بين المِلل المختلفة إلى الآخرة. **وفي الآية تسلية للنبي** ﷺ في تأخير العذاب عمن كفر به إلى يوم القيامة[3].

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾، **ويقول كفار قريش:** هلّا أُنزلت على محمد

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:649).

(2) صحيح مسلم: (4/ 2197)، برقم: (2865).

(3) ينظر: تفسير القرطبي: (8/ 323).

معجزة نقتنع بها، فنؤمن به، وهذا من تعنتهم، وإلا فقد جاءهم بمعجزات وما اقتنعوا بها، منها: انقسام القمر نصفين، ومنها: معجزة القرآن الذي تحداهم الله أن يأتوا بسورة مثله، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، فلم يقدروا، ولكنهم يقصدون بالآيات ما يقترحونه عليه منها على سبيل التعجيز، فأمر الله رسوله ﷺ أن يخبرهم أن إنزال المعجزات من أمر الغيب، وهو بيد الله وحده، وليس بمقدور أي رسول أن يأتي بها، **كما قال الله:** ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾[الرعد:38]، فلا تطلبوا مني ما لا يحق لكم، ولا أستطيع أن أمنحكم إيّاه، ثم أخبرهم بأن ينتظروا قضاء الله بينه وبينهم، بإظهار المحقّ على المبطل، وأنه منتظر ذلك مثلهم(1)، وهو أسلوب يُفيد التهديد والوعيد لهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان طبيعة الإنسان الغافل أنه يُقبل على الله عند نزول الضر به وينسى ذلك في الرخاء.

2- بيان أن سبب هلاك الأمم السابقة هو الكفر والتكذيب.

3- بيان عِظم جريمة الكذب على الله، أو التكذيب بآياته.

4- بيان أن الرسل مُبلِّغون عن الله شرعه للناس، وليس إليهم تبديل ولا تعديل الأحكام.

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 435).

5 – بيان سخافة عقول المشركين الذين يصنعون آلهة ثم يعبدونها، ويدّعون أنها تشفع لهم عند الله.

6 – بيان أن الله خلق الناس على التوحيد ثم انحرفوا عنه بعد ذلك.

7 – بيان أن إنزال المعجزات أمر غيبي، وهو بيد الله وحده، وليس بمقدور أي رسول أن يأتي بها.

تفسير المقطع الثالث من سورة يونس

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ
مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ (٢١) هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ
فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن
كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا
يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ
قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٢٥) ۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ
مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧) وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا
بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ

عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾، **يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** عن حال المشركين حينما يرحمهم الله تعالى ويرفع عنهم ما نزل بهم من الضر، كالمرض والفقر والقحط والخوف ونحوه، بعد أن يدعوه مخلصين له الدين، فإذا رحمهم بالخصب بعد الجدب، والصحة بعد المرض، والأمن بعد الخوف، ورفع عنهم المصائب التي أصابتهم؛ ما شكروا نعمته، ولا قدروها حق قدرها، بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر، وطعنوا في آيات الله، واحتالوا في دفعها بكل حيلة[1]، **وهذا يدل على سخافة عقولهم**، وسمّى تكذيبهم بالآيات مكراً؛ لأنه مبنيٌّ على الحيلة والخديعة في ردها بذكر أسباب واهية[2]، ولذلك أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يخبرهم بأن الله أعجل عقوبة، وأشد أخذاً، وأقدر على الجزاء، وأن عذابه في هلاكهم أسرع إليهم مما يأتي منهم في دفع الحق، ولكنه أمهلهم إلى يوم القيامة، حيث أمر الملائكة الحفظَة يكتبون ويحفظون عليهم تلك الأعمال القبيحة السيئة فيحاسبهم الله عليها يوم القيامة[3]، والمكر ليس صفة مطلقة لله تعالى، بل هو من صفات المقابلة، فهو يمكر بمن يستحق المكر.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 493).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (17/ 232).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 435).

وقولـــه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾، يذكر الله تعالى للخلق عامة، وللمشركين خاصة؛ لأن الخطاب لهم، فيُبيّن لهم نعمه ودلائل قدرته وعظمة سلطانه عليهم، فهو الذي يسهّل ويهيئ لهم أسباب السير في البَر، كالمشي بالأقدام، والركوب على الحيوانات، ونحوها من الوسائل، كالسيارات والطيارات وغيرها، وسهّل لهم ومنحهم القدرة على صناعة السفن وقيادتها داخل البحر والركوب عليها، حتى سارت بهم على سطح البحر بواسطة الرياح الطيبة الهادئة التي هيئها الله لهم، فساروا بها بهدوء ووفق ما يُريدون، وفرحوا بهذه الريح الهادئة الطيبة واطمئنوا لها، وفجأة جاءت السفينةَ ريحٌ عاصفة شديدة السرعة، وجاء ركابَها موجُ البحر الشديد المضطرب من كل الجهات، وهو ما يسمّى بالإعصار[1]، وهو أخطر أنواع الموج ضرراً على السفن، لأنه يجعل السفينة تدور وتضطرب، وربما رجع عاليها سافلها فتغرق، وأيقن الركاب الذين على ظهر تلك السفن أن الهلاك واقعٌ بهم لا محالة، وعبّر بالإحاطة عن الهلاك لتحقق وقوعه؛ لأن معنى الإحاطة هو: الإحداق بالشيء من جميع جوانبه والتمكن منه[2]، فلما وصل الركاب إلى هذه الحالة، لجأوا إلى الله يدعونه ويتضرعون إليه مخلصين له الطاعة والانقياد،

(1) ينظر: المعجم الوسيط: (2/ 604).

(2) ينظر: كتاب الكليات: (ص:56).

وأفردوا الدعاء لله وحده لا شريك له، بصدق وإخلاص، وتركوا الأصنام والأوثان وما كانوا يدعون من آلهة غير الله، قائلين في دعائهم: لئن أنجانا الله من هذه المهلكة لنكونن له بعد ذلك من المؤمنين الطائعين. **وفي الآية دليل على** أن الخلق جُبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يُجاب دعاؤه، وإن كان كافراً[1].

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾، فلما رفع عنهم الهلاك، وهدأت الرياح، واستقرت السفن، وواصلت طريقها إلى البر، وعادوا إلى أهلهم سالمين؛ لم يوفوا بما وعدوا، وإنما عادوا إلى الكفر والشرك، وسمّي الشرك بغياً؛ لأنه اعتداء على حق الخالق، وهو أعظم اعتداء، **ووصْف البغي** "بغير الحق" هو قيد كاشف لمعنى البغي، لأن البغي لا يكون إلا بالباطل[2]، فأخبرهم الله أن ضَرر بغيهم وإثمه وجزاءه راجع عليهم، لا على غيرهم، فالمتضرر من الكفر والفساد هو فاعله، والمستفيد من الإيمان والصلاح هو فاعله، فإن الله لا تضره معصية عباده ولا تنفعه طاعتهم، ثم بيّن لهم أن الله أمهلهم مع وقوع الكفر والفساد ولم يوقع الهلاك بهم، بل جعلهم يتمتعون ببغيهم في الحياة الدنيا التي هي متاع حقير زائل، ثم يموتون ويحشرهم بين يديه، فيُخبرهم بأعمالهم السيئة ويُعاقبهم عليها. **وفي الآية** تحذير لهم عن الاستمرار

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (8/ 325).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 139).

على عملهم السيء[1].

وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾، ثم ذكر الله مثل الحياة الدنيا، التي يتنافس الناس عليها، ويُضيّعون التوحيد والطاعة من أجلها، في فنائها وزوالها، بأنها تشبه حال ماء المطر الذي ينزله الله من السحب التي في السماء، فترتوي به الأرض، فتنبت منه الزروع والأشجار التي يقتات من ثمارها الناس، كالحبوب والفواكه ونحوها من الثمرات، وتنبت الزروع والأشجار التي تأكلها الأنعام، وبسبب استمرار نزول الأمطار على الأرض الخصبة تنمو الأشجار والنباتات وتثمر، وتصبح الأرض خضراء مُتزينة جميلة المنظر، يراها الناس فيُعجبون بها، بخلاف الأرض اليابسة الغبراء التي لا خضرة فيها، فإنه لا يظهر عليها الجمال والزينة، فإذا أثمر الزرع وأينعت ثمارُه فرح أصحاب الزرع بزروعهم، وأيقنوا بأنهم قادرون على حصاد وقطف ثمارها والانتفاع بها، واستعدوا لذلك، وفجأة أتى قضاء الله بهلاك واستئصال تلك المزرعة وثمارها في وقت غير محدد لهم، فقد يكون في الليل، أو في النهار، فجاءتها صاعقة، أو ريح بادرة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها[2]، فأصبحوا أو أمسوا فوجدوها محصودة لا ثمار فيها؛ وكأن

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:361).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 260).

هذه المزرعة لم يكن عليها نبات ولا زرع مثمر بالأمس، فهكذا هي حال الدنيا وحال الخلق فيها، فالإنسان يجد نفسه صحيحًا قويًا متمتعًا بالنعم، وفجأة يأتي أمر الله بهلاكه ودنو أجله في أي لحظة من ليل أو نهار، فيغادر الدنيا، كما غادرت تلك الزروع والثمار المزرعة!، ومثل ما بيّنا لكم أمر الدنيا بهذا المثال؛ قد بيّنا لكم الآيات الكونية والشرعية من أجل أن تتفكروا فيها بعقولكم، فتوحدون الله ربكم. وفي الآية وعظ وإرشاد للناس بأن يتّعظوا بحال هذه الدنيا الفانية ويستعدوا للآخرة الباقية، وأن من لم ينتفع بالآيات فليس من أهل التفكر.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾، **وأخبر الله عن نفسه** بأنه يدعو الخلق إلى دار السلام وهي الجنة - فمن دخلها يسلم من كل أذى، وهي ملك لله، فالسلام اسمٌ من أسمائه[1] -وذلك بإرسال الرسل، وإنزال الكتب التي فيها الدعوة والإرشاد إلى كل الأعمال التي تُدخل الجنة وتُباعد عن النار، وجعل الدعوة إلى ذلك عامة ومتاحة لكل الخلق، وجعل هداية التوفيق خاصة بمن يشاء[2]، فمن شاء الله له الهداية؛ وفّقه إلى اتباع الصراط المستقيم، وهو دين الإسلام الذي يوصله إلى دار السلام، وهي الجنة.

وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾، **ثم بيّن موقف الخلق** من دعوته لهم إلى دار السلام، **وأنهم انقسموا إلى صنفين، الصنف الأول:** وهم الذين استجابوا لها، وهم

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:654).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 498).

المؤمنون الذين أحسنوا العمل الصالح في الدنيا، فأتقنوه وأخلصوا فيه لله، فلهم الخصلة الحسنة المحبوبة المرغوب فيها في الآخرة، وهي الجنة[1] وما فيها من نعيم مقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم فيها زيادة على ذلك، وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وقد ثبت ذلك التفسير في الحديث الصحيح[2]، فلا يُترك تفسير النبي ﷺ إلى تفسير غيره، ومن جزاء المحسنين في الآخرة بياض وجوههم من الفرح والسرور بما أعطاهم الله من الثواب، فلا يظهر عليها القتَر، وهو الغبرة التي فيها سواد[3]، وتظهر على الوجه من أثر الذنب أو من الموقف المخزي، ولا تصيبهم الذلة، وهي ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والمهانة[4]، بل هم في فرح وسرور وحبور، وهم أصحاب الجنة الملازمون لها، فلا يخرجون منها، ولا ينتهي عنهم نعيمها.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾، **ثم بيّن جزاء الصنف الثاني**، وهم الذين لم يستجيبوا لدعوة الله إلى دار السلام، بل عارضوها وفعلوا السيئات من الكفر والشرك والمعاصي، فجزاؤهم أن يُعاقبوا عليها بمثلها، فيجازي على السيئة الواحدة بسيئة واحدة لا يزاد عليها، وهذا من

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 71).

(2) ينظر: صحيح مسلم: (1/ 163)، برقم: (181).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 15).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 499).

عدل الله بهم[1]، ويغشاهم الذل والخزي والهوان، ولا يوجد معهم من يمنعهم من عذاب الله وسخطه الذي نزل بهم، ويعلو وجوههم السواد الشديد من آثار ذنوبهم ومعاصيهم ومن الموقف المخزي الذي حلّ بهم، حتى تصير وجوههم كأنها قطعة مظلمة من الليل الأسود الذي اشتد ظلامُه[2]، ثم يُؤمر بهم إلى النار فيصيروا من الملازمين لها، الخالدين في عذابها، الذي لا ينتهي عنهم، ولا يخرجون منها.

وقوله: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾، واذكر يوم يحشر الله الكفارَ جميعاً مع آلهتهم وأصنامهم، فيجتمع بين يدي الله العابد والمعبود، يخاطب الله المشركين بأن يلزموا مكانَهم لا يبرحوا حتى ينظروا ما يفعل بهم[3]، وكذلك شركاؤهم من الأصنام ونحوها تلزم مكانها، ثم يفرّق الله بين المشركين وما كانوا يعبدون من دون الله. **والمزايلة** هي المفارقة، **يقال:** زايلت بين الشيئين إذا فرّقت بينهما[4]، ثم أنطق الله هؤلاء الشركاء من الأصنام والأوثان ونحوها[5]، فأنكروا ونفوا عبادة المشركين لهم، **فأما الأصنام والأوثان** فأنطقها الله وكانت صادقة في قولها؛ لأنها جمادات لا تعلم بمن يعبدها، **وأما الشياطين والجن**

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 440).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (17/ 243).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 343).

(4) ينظر: لسان العرب: (10/ 87).

(5) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 500).

ونحوهم ممن عبدهم المشركون برضاهم، فإنهم كاذبون، وإنما أنكروا عبادهم من شدة الموقف، **وهناك صنف ثالث** عُبدوا بغير إذنهم، كالملائكة، وعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فهؤلاء إن نفوا عبادتهم فهم صادقون، لأنهم لم يأذنوا لهم بعبادتهم ولا دعوهم إليها، ثم يكتفي الشركاء بشهادة الله على الجميع وحكمه عليهم، فهو المطلع على أحوالهم، أما هم فكانوا غافلين عن تلك العبادة التي تصدر من المشركين لهم، وهذا الوصف يصلح في حق الأصنام، لأنها لا تسمع ولا تُبصر ولا تعقل، ويصدق في حق عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والملائكة، وغيرهم ممن عُبدوا من دون إذنهم ولا رضاهم، فالغفلة غيبة الشيء عن بال الإنسان وتركه إهمالاً وإعراضاً[1]، أما من عبدوهم بإذنهم ورضاهم من الشياطين والجن وغيرهم، فهؤلاء لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم[2].

وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾، وفي موقف الحساب ووقته[3] تُختَبر كل نفس[4] بما كسبت من أعمال في الدنيا، من خير أو شر، وذلك حين تستلم كل نفس الصحائف المكتوب فيها أعمالها، فتقرأ ما فيها[5]، وتكتشف النتيجة بنفسها،

---

(1) ينظر: المصباح المنير: (ص:233).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 117).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 19).

(4) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص:171).

(5) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 185).

وأُرجع الجميع إلى الله، فهو مولاهم الحق الذي يتولى حسابهم وعقابهم[1]، وهو الإله الحق وحده، وحسابُه للخلق بالعدل، وبطل وذهب عن المشركين كل شركهم وكذبهم في الدنيا، كادعائهم بأن الأصنام تشفع لهم[2]، ونحوها من الاعتقادات الباطلة التي أضلوا بها غيرهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الله يُعاقب الماكر بمكر أسرع من مكره.

2- بيان كثرة نعم الله على الخلق، وأن الواجب عليهم شكر الله عليها.

3- بيان أن مشركي الجاهلية كان إذا اشتد بهم الأمر دعوا الله مخلصين له الدين.

4- بيان أن الحياة الدنيا كالزرع الذي يخضر وينتظر الإنسان ثمارَه ثم يذهب فجأة.

5- بيان أن الجنة هي دار السلام، وأن الداعي إليها هو الله، بواسطة رسله وأنبيائه.

6- بيان أن من لم يستجب للدعوة كان من أهل النار الخالدين فيها.

7- بيان أن في يوم القيامة يتبرأ الشركاء ممن أشرك بهم.

8- أن الإنسان يعرف مصيره في المحشر من خلال قراءة صحائف أعماله.

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 20).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 442).

تفسير المقطع الرابع من سورة يونس

﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ
ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ
فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (٣٣) قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ (٣٤) قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى
ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا
ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ (٣٦) وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٧) أَمۡ
يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨)
بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٩) وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ
بِٱلۡمُفۡسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ
مِّمَّا تَعۡمَلُونَ (٤١) وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ (٤٢) وَمِنۡهُم مَّن
يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ (٤٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ
شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٤٤) ﴾.

قول الله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾، **أمر الله نبيه** ﷺ أن يسأل المشركين بعض الأسئلة التقريرية التي تثبت أن الله هو الخالق الرازق المالك المدبر للكون كله، وأنه هو المستحق وحده للعبادة، ومنها: مَن الذي يأتيكم بالرزق من السماء، وهو إنزال المطر، ومِن الأرض، وهو إنبات الثمار[1] التي تقتاتون عليها؟! ومَن الذي خلق وأوجد لكم السمع والأبصار؟! ومنحكم القدرة على السمع والبصر بها، ومَن الذي يُخرج الشيء الحي من الشيء الميت، ويخرج الشيء الميت من الشيء الحي؟!، كالدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، ويُخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ونحوها من الأمثلة التي ذكرها بعض المفسرين لذلك[2]، ولا تعارض بينها؛ لأنها من التفسير بالمثال، واسألهم أيضاً: من الذي يصرّف أمور الكون كلها؟!، فإنهم سيجيبون عليك بدون أدنى شكٍ بأن الذي فعل ذلك هو الله، لأنهم لم يكونوا يعتقدون غير ذلك، فإن هذه الأعمال لا يقدر عليها إلا الله، **فأمر الله رسوله أن يقول لهم**: أفلا تخافون عقاب الله وتتركون الشرك به[3]، وتعبدونه وتخضعون له دون سواه؛ لأن هذا مقتضى اعترافهم بأن الله هو الذي يفعل هذه الأشياء دون سواه، أن يكون وحده هو المستحق للعبادة.

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 83).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 20).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 132).

وقوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ٣٢﴾، فالذي فعل هذه الأفعال كلها هو الله ربكم الإله الحق، وغيره من الأرباب والآلهة كلها باطلة، وأن عبادة الله وحده هي الحق، وأن عبادة غيره هي الضلال(1)، فبأي وجه تبتعدون عن عبادة الله وحده وأنتم مقرون بأنه المستحق لها دون سواه، والاستفهام إنكاري تعجبي!.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٣﴾، **الكاف** للتشبيه، والمُشبّه به ما سبق من إثبات الربوبية والألوهية لله بالأدلة، فكما ثبت ذلك؛ فقد وجب قضاء الله وحكمه في اللوح المحفوظ(2) بحرمانهم من الإيمان في الدنيا بسبب تكبرهم وإعراضهم عن أسباب الهداية، **كما قال:** ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف: ٥]، وقد انحرفت بعض الفرق في القدر، فبعضها غالت في نفي القدر، كالجبرية، وبعضها غالت في إثباته، كالمعتزلة، وأهل السنة والجماعة وسط بينهم، فأثبتوا القدر لله، وأثبتوا الكسب والاختيار للعبد، فأقدار الله نافذة، ولكن العبد هو السبب في حصول ذلك القَدَر عليه، فإن هلك فبسبب زيغه وبُعده عن الحق، وخذلان الله له، وإن اهتدى فبسبب إقباله ورغبته في الحق وتوفيق الله، وبهذا تُجمع أدلة القدر ولا تتعارض.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٣٤﴾، **ثم أمر الله رسوله** أن يسأل المشركين عدة أسئلة، تثبت عجز

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 188).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 442).

الآلهة وعدم قدرتها على فعل شيء، ومنها: هل يوجد من أصنامكم وآلهتكم التي تعبدونها من دون الله من يخلق الخلق من العدم، ثم يميتهم، ثم يبعثهم خلقاً جديداً، فلما أُفحموا؛ لأنه لا يستطيع ذلك أحد غير الله، فالصنم نفسه يصنعه العابد له ثم يعبده؛ أو سكتوا عن الإجابة، فراراً منهم حتى لا تلزمهم الحجة(1)؛ **أمر الله رسوله أن يجيب عنهم**: بأن الله هو الذي ينشأ الخلق من العدم، وهو القادر على بعثهم بعد موتهم خلقاً جديداً، وإذا كان الأمر كذلك؛ فبأي وجه تبتعدون عن الحق وتُعرضون عنه، وهو عبادة الله وحده.

وقولـــه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾، واسألهم يا محمد! هل يوجد من هذه الأصنام والأوثان من يدل على الحق وهو الإسلام ويرشد إليه؟! فلما سكتوا عن الجواب لعجز أصنامهم عن ذلك؛ لأنها جمادات لا تتكلم ولا تسمع ولا تبصر ولا تفكر، **أمر الله رسوله أن يجيب عنهم**: بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يهدي إلى الحق بنوعي الهداية: هداية الإرشاد، وهي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإبلاغ الناس الحق وبيانه لهم، أو هداية التوفيق والتسديد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمَن وفقه الله لقبول الحق والإيمان به، **ثم اسألهم**: من هو المستحق للعبادة والخضوع لشرعه، من بيده هداية الخلق، أم من لا يملكها لنفسه، فضلاً عن أن يمنحها غيره؟!، **وفي كلمة**: "يهدي" خمس قراءات(2)، وهي:

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 505).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 87)، وكتاب السبعة: ص (326).

(يَهْدِّي)، بتسكين الهاء، وتشديد الدال، و(يَهَدِّي)، بفتح الهاء وتشديد الدال، و(يَهِدِّي)، بفتح الياء، وكسر الهاء، وتشديد الدال، و(يَهْدِي)، بتسكين الهاء وتخفيف الدال، و(يِهِدِّي)، بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، وكلها بمعنى واحد وهو نفي الهداية عن الأصنام والأوثان، فإنها لا تهدي غيرها، بل تُهدى، **بمعنى**: أنها تُحمَى وتُنقل من مكان إلى آخر من قبل عابديها[1]، ثم سألهم سؤالاً استنكارياً تعجبياً من حكمهم بأن هذه الأصنام تستحق العبادة من دون الله وهي بهذا العجز التام.

وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾، **ثم بيّن سبب وقوع المشركين** في عبادة غير الله والشرك به سبحانه، بأنه ناتج عن ظنون وأوهام، وليس عندهم أدلة ولا براهين على ذلك، وتنكير الظن هنا للتحقير أي: إلا ظناً ضعيفاً لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون[2]، وأن اتباع الظن لا يقوم مقام العلم بشيء، ولا يحل محله، ولا ينافسه، ولا يعارضه، وخاصة في أمر العقيدة؛ لأن العقيدة هي الاعتقاد الجازم الذي لا يدخله أدنى شك، ثم عقّب على ذلك بإحاطة علم الله بهم وبما يفعلونه من الكفر والشرك بالله، وهو أسلوب خبري لكنه يفيد التهديد والوعيد[3] لمن يعبد غير الله بلا حجة ولا برهان.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 163).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 506).

(3) ينظر: تفسير القرطبي: (8/ 343).

وقولــه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾، **ثم أخبر عن مكانة القرآن**، وأنه عظيم ومُعجِز، وليس في مقدور البشر أن يأتوا بمثله، لأنه كلام الله، ولا يشبهه كلام البشر، لم يأتِ به محمد ﷺ من عند نفسه، بل هو وحيٌ أوحاه الله إليه، وهو تصديق لما سبقه من الكتب السماوية التي أوحى الله بها إلى الرسل السابقين، ومهيمن عليها[1]، **وفيه بيان الأحكام الشرعية** من حلال وحرام بيانًا شافيًا كافيًا، وهو حق كله، لا شك فيه ولا ريب، نزل به الروح الأمين من رب العالمين، على قلب سيد المرسلين.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾، **بل يقول كفار قريش**: إن محمداً ﷺ افترى القرآن من عند نفسه، وهي فرية قد نفاها الله عنه في الآية التي قبلها، وقد أمر الله نبيّه ﷺ أن يحاورهم بنفس منطقهم، **فيقول لهم**: إن كنت أتيت بالقرآن من عند نفسي كما تزعمون، فأنتم الفصحاء البلغاء، فأتوا بسورة واحدة مثله، ولو من أقصر السور، مثل سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات، وليس هذا التحدي لهم فقط، بل أذن لهم أن يستعينوا بمن شاءوا من دون الله[2]، من الجن والشياطين، والشعراء والأدباء، من العرب والعجم وغيرهم، حتى يثبتوا صدقهم في دعوى افتراء محمد ﷺ للقرآن، فظهر من عجزهم أنهم كاذبون في دعواهم، وما زال هذا التحدي مفتوحًا للخلق أجمعين إلى قيام الساعة.!

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 443).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 269).

وقولـــه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾، "بل" حرف يأتي للإضراب والإعراض عما سبق[1]، وهو أن تكذيبهم بالقرآن ليس لأن محمداً ﷺ افتراه، فهم يعلمون بطلان هذه الشبهة، وإنما السبب الذي جعلهم يُكذّبون بالقرآن هو جهلهم بأنه كلام الله، وعدم إلمامهم بما فيه من الحكم والأحكام، بل سارعوا إلى التكذيب به قبل أن يعلموا ما فيه، وجهلهم بما يؤول إليه الوعد والوعيد فيه[2]، فإن الله توعّدهم بالعذاب والعقوبة على التكذيب به، ولمّا يتحقق فيهم وعده وفقًا لسنّة الإمهال، فدفعهم ذلك إلى استمرار التكذيب به والإعراض عنه، والكاف للتشبيه، فتكذيب كفار قريش بالقرآن وبمحمد ﷺ يشبه تكذيب من قبلهم من الأمم الكافرة بما أُنزل على أنبيائها[3]، **والخطاب للنبي** ﷺ، ويصلح لكل قارئ بعده، والمقصود بالنظر هنا التأمل والتفكر والاعتبار فيما حصل من عقوبة للظالمين المكذبين السابقين، وهو الهلاك الذي لم يبق منهم أحداً[4].

وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين المعاصرين له.

وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠﴾، ثم أخبر عن حال الناس مع القرآن، ومع نبيه الكريم، **وأنهم انقسموا إلى قسمين، الأول:** من وفقه الله للإيمان بالقرآن واتباع نبيه محمد ﷺ، **والقسم**

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 171).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 134).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 508).

(4) ينظر: تفسير السعدي: (ص:365).

الثاني: من استمر على الكفر حتى قُتل أو مات عليه، والخطاب لكفار قريش، ويصلح للبشرية كلها إلى قيام الساعة، فمن الناس من يُؤمن بالقرآن ونبيه حين يسمعه، ومنهم من يسمعه ولا يُؤمن به، والله علم بحال الجميع، وإنما خص المفسدين وهم الكفار بالذكر تهديداً لهم وتعريضاً بالعقوبة التي تنتظرهم(1).

وقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾، **الخطاب لمحمد** ﷺ، وفيه تسلية له، بسبب تكذيبهم به، وإعراضهم عن الإيمان، فأمره أن يخبرهم بأنه مسؤول عن عمله من خير أو شر، وهم مسؤولون عن عملهم من خير أو شر، وأنهم بريئون من آثار عمله، حسنة كانت أو قبيحة، وهو بريء من آثار عملهم، حسنة كانت أو قبيحة، فتبرأ النبي ﷺ من شركهم وآثارهم، كما تبرّؤوا من إيمانه وآثاره، فلما هاجر وقوي أذن الله له بقتالهم. **وهذه الآية وأمثالها في السور المكية التي تأمر النبي** ﷺ بالإعراض عن الكفار والمتاركة لهم في مرحلة الاستضعاف؛ بسبب أنه ليس لديك القوة والقدرة على محاربتهم وقتالهم حتى يأذن الله له، والراجح أنها ليست منسوخة بآيات السيف والقتال، وأنها محكمة يُعمل بها في حال الاستضعاف في كل وقت، ويُعمل بآيات السيف والقتال والجهاد في وقت القوة والقدرة.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾، ومن الكفار صنف يستمع إليك يا محمد بأذنه وأنت تقرأ القرآن وتبيّن أحكامه لهم، ولكنه لا يستمع إليك سماع انتفاع، وإنما يستمع إليك سماع استهزاء

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 204).

وتكذيب، ولذا سأله سؤال تعجب ممن هذا حاله، كيف توصل المعلومة إلى قلبه ليفهمها؟!، فليس المقصود بالصمم عدم قدرتهم على السماع، فليست آذانهم مسدودة، بل هو عدم الانتفاع بالسماع، فقلوبهم لا يصل إليها الحق الذي سُمع بالآذان، لأنهم لا يعقلون ما يسمعون[1]. **وفي الآية إشارة** إلى أن الأصم لو كان عاقلاً لأمكن أن تُفهمه بالإشارة، ولكن هؤلاء كالأصم الذي جمع بين عدم السمع وعدم العقل، فأنى يفقه ما يُقال له؟!.

وقولــه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾، **ومن الكفار صنف آخر** ينظر إليك ببصره وأنت تتلو القرآن وتدعو إلى الله، ولكنه لم يستفد من هذا النظر، ولم يؤمن بما رأى من الحجج والبراهين، ولذا سأله سؤال تعجب ممن هذا حاله، كيف تدله على الطريق وهو لا يبصر؟! والمقصود به عمى البصيرة، وهو عدم الفهم بقلبه، **كما قال:** ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج:46]. **وفي الآيات السابقة** تسلية من الله لنبيه ﷺ، فإنه لا يقدر أن يُسمع من سلبه الله السمع، ولا يقدر أن يهدي من سلبه الله البصر، ولا يقدر أن يوفق للإيمان من حكم الله عليه بأنه لا يؤمن[2].

وقولــه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾، فما حصل لهؤلاء من عدم الانتفاع بما يسمعون وما يرون من الحق، لم يظلمهم الله بذلك، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل

(1) ينظر: تفسير السعدي:(ص:365).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 445).

وهـم يُـسألون، لعلمـه وحكمتـه وعدلـه[1]؛ وقـد أعطـاهم الله الـسمع والأبـصار والأفئـدة، وأرسـل لهـم الرسـل، وأنـزل معهـم الكتـب ليـدلوهم علـى الحـق ويرشـدوهم إليـه، فظلمـوا أنفـسهم بـالإعراض والتكـبر عـن الحـق، فعوقبـوا بالحرمان من الاستفادة من تلك الحواس في معرفة الحق والتأثر به.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أهمية الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

2- بيان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حرم بعض الناس من الإيمان بسبب إعراضـهم عن أسباب الهداية.

3- بيـان أن الله دعـا عبـاده إلـى دار الـسلام وهـي الجنـة، بإرسـال الرسـل، وإنزال الكتب.

4- بيان أن الحق يُثبت بالحجج والبراهين لا بالظنون والتخرّصات.

5- بيان أن الظن لا يقوم مقام الحق أبداً.

6- بيان إعجاز القـرآن، وأن الله تُحدَّى بـه الخلـق قـديماً وحـديثاً وإلـى أن تقوم الساعة.

7- بيان سفَه عقول المشركين الذين يعبدون أصناماً لا تنفع ولا تضر.

8- بيان جواز المتاركة والموادعة للكفار في حالة استضعاف المؤمنين.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 271).

تفسير المقطع الخامس من سورة يونس

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ
شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم
بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٤٨) قُل لَّآ أَمۡلِكُ
لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا
يَسۡتَقۡدِمُونَ (٤٩) قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٥٠)
أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ
عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (٥٢) ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي
وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ (٥٣) وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ
بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٥٤) أَلَآ
إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحۡيِۦ
وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٥٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي
ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٥٧) قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ
مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (٥٨)﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾، **يُخبـر الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عـن حـال المكذبين حينما يحشرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة من أجل الحساب والجزاء، فإذا حشرهم ورأوا هول المطلع؛ ظنوا أنهم لم يعيشوا في حياتهم كلها في الدنيا[1] إلا مقدار لحظة من الزمن، وهو الوقت القليل من نهار يوم من أيامها، فيحصل التعارف بينهم في ساحة المحشر، فيعرف الابن أباه، والأخ أخاه، والقريب قريبه، والجار جاره، والصديق صديقه، كما كانوا في الدنيا، وكان هذا التعارف بينهم ليوبّخ بعضهم بعضاً على الضلال الذي كانوا عليه[2]، ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم، فلا ينفع أحد أحداً، وتبيّن لهم من صحائف أعمالهم أنهم هالكون، وأنهم قد خسروا نجاة أنفسهم وأهليهم في الآخرة؛ لأنهم كفروا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذّبوا بلقائه، وأنكروا الحشر والحساب، ولم يوفّقوا للهداية في الدنيا بسبب إعراضهم وبُعدهم عن أسبابها.

وقولـــه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾، الخطاب لنبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فقد كان المكذّبون به يسألونه نزول العذاب، استهزاءً واستعجالاً له، فأخبره الله أن نزول شيء من العذاب بهم قد يكون وهو حيٌّ بينهم فيراه، كما حصل لبعضهم في غزوة بدر وغيرها من الغزوات[3]، أو قد يُؤجل بعضه إلى بعد وفاته، فإذا لم يُعذّبوا في الدنيا في حياته

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 510).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 271).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 446).

ولا بعد وفاته، فإن عذابهم سيكون في الآخرة، حين يحشرهم الله ويبعثهم بين يديه، ثم يُحاسبهم الله على ما فعلوا من خير أو شر، وقد كان الله رقيباً على أعمالهم في الدنيا ومحصياً لها. وفي الآية تسلية لرسوله ﷺ، وتهديد ووعيد للمكذبين به[1].

وقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾، **وقد قضى الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكون لكل أمة من الأمم رسول، والأمة هم المجموعة من الناس الذين يعيشون مكاناً محدداً وزمناً محدداً، وقد تكون أمة كثيرة ممتدة الزمن والمكان مثل أمة محمد ﷺ، وقد تكون أمة قليلة العدد مثل أمة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، **وفي وقت مجيء الرسول قولان**[2]، **الأول:** أن يكون معنى مجيء الرسول إليهم في الدنيا ليدعوهم إلى الإيمان به وعبادته، فإن كفروا به وأعرضوا؛ حكم الله بين الرسول وقومه بالعدل، فأهلك الكافرين بسبب كفرهم وعدم إيمانهم، ونجى الله المؤمنين مع رسولهم، كما حصل لقوم لوط وقوم نوح وقوم صالح وغيرهم، **والثاني:** أن يكون معنى مجيء الرسول إليهم في الآخرة ليشهد عليهم، **كما في قوله:** ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[النساء:41]، فيحكم الله عليهم بالعقوبة التي يستحقونها، ولا تعارض بين القولين، لثبوت مجيء الرسل إليهم في الدنيا وفي الآخرة، وحكْم الله بين الخلق في الدنيا والآخرة ليس فيه ظلم للمؤمن ولا للكافر،

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:365).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (2/ 437).

فالمؤمن لا يبخس الله من حسناته، والكافر لا يزيد الله في سيئاته، ولا يُعذبُ أحداً بغير ذنبه؛ لأن ذلك كله ظلم، والله منزّه عن الظلم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾، **ويقول كفار مكة للرسول وللمؤمنين على سبيل الاستهزاء والتكذيب بما وعدوا من العذاب**: متى موعد نزول العذاب علينا[1] إن كنتم صادقين في قولكم أن الله يعذب من لم يؤمن بالله ورسوله.

وقوله: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾، **أمر الله نبيّه أن يقول لهم**: إن أمر عذابكم، وأمر تدبير هذا الكون، بيد الله وحده لا شريك له، وليس إليّ، فأنا بشر مثلكم، ولا أملك أن أدفع عن نفسي ضراً، ولا أجلب لها نفعاً، إلا بإذن الله، وأن الله قد جعل لكل أمة وقتاً محدداً، ومكتوب في اللوح المحفوظ لنزول العذاب عليها[2]، فإذا جاء وقته؛ نزل بهم الهلاك في موعده، فلا يتقدم عنه لحظة من الزمان ولا يتأخر، وفي الآية أعظم واعظ وأبلغ زاجر لمن يستغيث برسول الله ﷺ بعد موته، ليدفع عنه ما نزل به من المصائب التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه[3].

وقوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾، **قل يا محمد للكفار**

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 26).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (8/ 350).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 511).

المكذبين بك: أعلمتم، لأن الرؤيا هنا رؤيا قلبية، **يُقصد بها** العلم والمعرفة بعد التفكر[1]، إن نزل بكم عذاب الله في الليل وأنتم نائمون في بيوتكم، وكنّى عن الليل بالبيات؛ لأن الإنسان يكون فيه بالبيت غالباً[2]، أو نزل بكم عذابه في النهار وقت خروجكم للعمل والانتشار في الأرض، بمعنى أنه يأتيهم فجأة في أي وقت وهم لا يشعرون بمجيئه، ثم سألهم سؤالاً تعجبياً من طلبهم للعذاب واستعجالهم له، لأي شيءٍ يستعجل الكفار العذاب، وليس هناك ما يوجب استعجاله؛ فالعذاب كله مكروه يوجب النفور منه لا طلبه، لو كانوا يعقلون![3]، ثم سألهم سؤالاً استنكارياً تعجبياً آخراً، **وهو**: أحِيْن نزل بكم العذاب تؤمنون؟![4]، لأن تصديقهم بالعذاب الذي كانوا ينكرون وقوعه حين وقع بهم أغرب من استعجالهم به[5]، ولأن هذا الوقت لا يُقبل فيه الإيمان، **فالإيمان لا يُقبل في ثلاثة أوقات، الأول**: عند نزول عذاب الاستئصال، **والثاني**: عند وصول الروح إلى الحلقوم، **والثالث**: عند طلوع الشمس من مغربها، وكرّر عليه السؤال الاستنكاري التوبيخي لهم: آلآن تؤمنون حين وقع بكم العذاب؟!، وقد كنتم تنكرون نزوله وتستعجلون حصوله استهزاءً وكفراً بالله، ولو آمنتم قبل ذلك في وقت الفسحة والإمهال؛ لقبل الله إيمانكم، أما الآن فإيمانكم غير مقبول.

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 222).
(2) ينظر: تفسير: (2/ 447).
(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 351).
(4) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 137).
(5) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 193).

وقولــــه: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾، **فالعذاب الأول** الذي نزل بهم هو عذاب الاستئصال في الدنيا، ثم يُبعثون ويحاسبون ويقذفون في النار، وتقول خزنتها[1] للظالمين لأنفسهم بالكفر والإجرام: ذوقوا ألم العذاب المستمر الذي لا ينقطع عنكم في النار، وما جازاكم الله به من العذاب هو بسبب أعمالكم السيئة من الكفر والمعاصي التي فعلتموها في الدنيا.

وقولــــه: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾، الخطاب لرسوله ﷺ، يستخبرونك على جهة الاستهزاء منهم والإنكار: أحق ما تعدنا به من العذاب في العاجل والآجل؟!(2)، **فأجبهم وقل لهم:** نعم، وربي إنه لكائن لا محالة، ولستم أيها الكفار المكذبون بمعجزين الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم[3]، ولا مفلتين من عذابه، فالله قادرٌ على بعثكم ومحاسبتكم ومجازاتكم على كفركم، ولا مفر لكم من ذلك.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾، ثم أخبر عن حال الكفار والمشركين يوم القيامة حين يؤمر بهم إلى النار، فيرون شدة عذابها فيتمنون الخروج منها بدفع الفدية مهما كانت كبيرة، بل لو قُدر أن يكون لكل نفس

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (8/ 351).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني (2/ 514).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 274).

مشركة ما في الأرض من ذهب وفضة لدفعتها كلها طلبًا للنجاة من النار، ولما نفعها ذلك؛ لأن الذي ينفع يوم القيامة هو الإيمان والعمل الصالح[1]، **وفي الحديث**: **"يجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا، أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك"**[2]، أي: كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، وهذا يدل على أهميتها، وأن ذهب الأرض كله لا يعادلها يوم القيامة، فلمّا يأس الكفار من النجاة من النار يسرّون الندامة، **وللمفسرين فيها قولان**[3]، **الأول**: بمعنى يظهرون الندامة على ما فاتهم من الإيمان والطاعة حين رأوا العذاب الشديد، فيكون هذا اللفظ من الأضداد[4]، **والثاني**: بمعنى يخفون ندامتهم، والمقصود بهم كبار القوم ورؤساؤهم حتى لا يشمت بهم أتباعُهم، والراجح من السياق: أن معنى الإسرار الإخفاء، وأنه لكل الكفار وليس للرؤساء فقط[5]، وأنه يقع منهم بدون رضاهم، وإنما من هول الموقف، فما استطاعوا أن يظهروا الندامة، وحكم الله وفصل بينهم بالعدل، فلا يظلمهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في زيادة سيئة واحدة في أعمالهم.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾، ثم وعظ الله الخلق جميعًا، وأخبرهم بأنه المالك المتصرف

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:366).

(2) صحيح البخاري: (8/ 112)، برقم: (6538).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (2/ 438).

(4) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 447).

(5) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 125).

للكون كله، وفي ذلك إشارة إلى استحالة أن يملك الكفار شيئًا يفتدي به من عذاب الله يوم القيامة![1]، وأن الخالق المالك للكون هو المستحق وحده للعبادة، وأن كل ما وعد الله به فهو حق لا ريب في تحققه، ولكن أكثر الناس، وهم الكفار، لا يعلمون ذلك، ولو علموا لما أعرضوا وكفروا به سبحانه.

وقوله: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٥٦﴾، وهو سبحانه القادر على إحياء الأموات، وإماتة الأحياء، وإليه وحده يرجع الخلق كلهم، فهو الذي يبعثهم من قبورهم ويحشرهم يوم القيامة، ثم يحاسبهم على أعمالهم ويجازيهم عليها.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٥٧﴾، ثم أخبر الناس جميعًا أنه قد منّ عليهم بإنزال القرآن الكريم على سيد المرسلين، ووصفه بأنه موعظة من الله لهم، فهو يدعو إلى الصلاح بوسائل الاتعاظ كلها، من الترغيب والترهيب ونحوها، وهو شفاء لما في القلوب من داء الجهل وسائر الأمراض[2]، ففيه وسائل الشفاء كلها، من العلم والمعرفة والحجج والبراهين ونحوها، فإذا امتلئ القلبُ بالعلم ونور الإيمان؛ ذهب عنه الضيق والضنك والقلق، وحلّ محله الطمأنينة والانشراح، وفيه بيان لأسباب الهداية كلها، وبيان لأسباب الرحمة كلها، وإذا حصل للعبد الهدى، وحلّت به الرحمة الناشئة عنه، فقد حصلت له السعادة والفلاح في الدنيا

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 447).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 228).

والآخرة[1]، وقد خص الله ذلك بالمؤمنين؛ لأنهم هم من يؤمنون بالقرآن ويعملون به، فيحصل لهم الانتفاع به.

وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾، قل يا محمد لكل الناس: أن يفرحوا بفضل الله وبرحمته، وفضل الله هو الإسلام، ورحمته هي القرآن[2]، فليفرح الناس كلهم بالإسلام والقرآن الذي منّ الله وأنعم به عليهم، فهي نعمة عظيمة لا تساويها نعمه، وفرحُهم بها خيرٌ من فرحهم بكل ما يجمعونه من حطام الدنيا الزائلة، لأن نعمة الدين متصلة بسعادة الدارين، وباقية لا تزول، فلا مقارنة بينها وبين جميع ما في الدنيا، مما هو زائل عن قريب[3]. **وفي الآية** مشروعية الفرح بالطاعة والخير، وقد جاءت آيات أخرى تنهى عن الفرح بالمعصية والشر، **كما في قوله:** ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾[القصص:76]، **مما يدل على أن الفرح نوعان، الأول:** الفرح الممدوح، وهو بالإسلام والقرآن وبكل طاعة وقربة وخير يحصل للمسلم، فمن حفظ القرآن فليفرح به، ومن اهتدى إلى الصلاح والاستقامة فليفرح بذلك، ومن صام رمضان فليفرح يوم عيد الفطر بذلك، وهكذا كل نعمة وخير وطاعة يمنّ بها الله على المسلم من خيري الدنيا والآخرة؛ فليفرح ولا حرج في ذلك، ويشكر لله على تلك النعمة وينسبها إلى مالكها وواهبها وهو الله،

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:367).
(2) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 105).
(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص:367).

والثاني: الفرح الممنوع، كفرح قارون، وهو فرح الأشر والبطر، والفرح بفعل المعصية والمنكر، والخداع للناس، ونحوها، فهذا فرح مذموم، وعاقبته وخيمة، نسأل الله السلامة والعافية.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن مهمة الرسل هي البلاغ المبين، وأن هلاك الأمم المكذبة لهم ليس إليهم.

2- أن النفع والضر بيد الله، فلا يملكه نبي مرسل ولا ملك مقرب.

3- أن الإيمان لا يُقبَل عند نزول عذاب الاستئصال والهلاك العام.

4- بيان أهمية كلمة التوحيد، وأن ذهب الأرض كله لا يعادلها يوم القيامة.

5- بيان أن القرآن موعظة وشفاء من كل الأمراض، وفيه جميع أسباب الهداية والرحمة.

6- مشروعية الفرح بكل نعمة وطاعة وخير يحصل للمسلم.

تفسير المقطع السادس من سورة يونس

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ
لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ
وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ
ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١ أَلَآ إِنَّ
أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣
لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ
ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥ أَلَآ
إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧
قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ
عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ
ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾، **يأمر الله نبيه محمداً** ﷺ أن يسأل كفار قريش سؤالاً استنكارياً على ما كانوا يحرّمونه ويحلّونه من الأنعام والزروع والثمار ونحوها، فيحرّمون بعضه على أنفسهم، ويجعلون بعضه خاصاً بشركائهم، بأي حجة فعلوا ذلك؟!، وهل أذن الله لكم بهذا العمل وهو التحليل والتحريم؟!، أم أنتم تكذبون على الله في ذلك؟!، والواقع أنهم فعلوا ذلك بدون إذن من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فثبت افتراؤهم، لأنهم معترفون أن الله لم يأذن لهم في ذلك[1]، وعبّر عن إعطاء الرزق بالإنزال؛ لأن معظم أموالهم كانت الثمار والأعناب والحبوب، وكلها من آثار المطر الذي ينزله الله من السماء، وكان معظم أموالهم من الأنعام، وحياتها على العشب والكلأ، وهو من أثر المطر[2]. **وفي الآية إشارة** إلى أن الله وحده هو الذي يُحِلّل ويُحرّم، وهو مشرّع الأحكام للخلق، وأن من يُحلّ شيئاً حرّمه الله، أو يُحرّم شيئاً أحلّه الله من المعاملات والمأكولات والمشروبات ونحوها، فقد وقع في الشرك بالله والكذب على الله.

وقوله: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾، الاستفهام استنكاري، فأي عقوبة عظيمة ينتظرها يوم القيامة من اختلق الكذب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟![3] وهو

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:666).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 209).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 29).

خطاب تهديد ووعيد للمشركين الذي كذبوا على الله، ثم بيّن فضله على المشركين بإمهالهم في الدنيا[1]، وعدم معاجلتهم بالعقوبة على كذبهم وافترائهم على الله، ولكن أكثرهم لا يشكرون الله على ذلك، والقليل منهم من شكر الله، وهم من آمن منهم، وما زالت هذه قاعدة مطردة ومستمرة إلى اليوم، فأهل الأرض أكثرهم كفار.

وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾، **ثم أخبر رسوله** ﷺ بأنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل لحظة وحين، وخصّ محمداً ﷺ وأصحابه بالذكر تشريفاً لهم، والخطاب يعمّ الخلق كلهم، والشأن هو الأمر والقصد[2]، أي: على أي حالٍ تكون من أحوالك كلها، من غنى أو فقر، أو مرض أو عافية، أو حزن أو فرح ونحوها، فإن الله يعلمه، ولا تقرأ آية من آيات القرآن أنت ولا غيرك، ولا تعملون من عمل صغيراً كان أو كبيراً، حسناً كان أو سيئاً، إلا كان الله شاهداً ورقيباً ومحصياً[3] أعمالكم في كل أحوالكم، ثم ذكر حالةً من حالات العمل، وهي حالة الإفاضة، وهي الاندفاع والقيام للعمل بجد ونشاط[4]، وترك الحالة الثانية المخالفة لها، وهي حالة التقصير

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (8/ 355).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 354).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 29).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 127).

والخمول وعدم النشاط في العمل؛ لدلالة الحالة الأولى عليها، ثم أكّد إحاطة علمه بنفي غياب علمه عن الكون كله مطلقًا، فلا يغيب ولا يبعُد عنه زِنة ذرة، وهي صغار النمل[1]، أو ما يُثقلها لو حملته، وقد سُميت الذرّة اليوم في العلوم الحديثة بعلم الذرّة، وذلك لصغرها ودقة جزئياتها، ولا يغيب عنه ما هو أصغر من زِنة الذرة، ولا ما هو أكبر منها من باب أولى، وكل ما يجري ويكون في الكون مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، ومعلوم لله سبحانه.

وقولـــه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾، "ألا" أداة تنبيه، وأولياء الله هم الذين منحهم ولايته ونصره وأحبهم، وقد أخبر بأنهم لا خوف عليهم من كل مكروه يُتوقعون حصوله في الحاضر والمستقبل، ولا يصيبهم الحزن الدائم، وهو حزن المذلة، وغلبة العدو عليهم، وزوال دينهم وسلطانهم[2]، ولا يحزنون على شيءٍ فاتهم أبداً، فأمّن لهم الماضي والحاضر والمستقبل في الدنيا والآخرة، وليس المقصود نفي الخوف والحزن الطبيعيين عنهم، فإنهما قد يحصلان للمؤمن في الدنيا؛ لأنها دار ابتلاء، ولكنهما لا يؤثران عليه، بل نفى عنهم الخوف من غير الله الذي يؤدي إلى الشرك بالله، ونفى عنهم الحزن الذي يُسيطر على القلب ويُؤثر عليه ويُؤدي إلى القلق والاضطراب، بل صدورهم منشرحة، وجوارحهم نشطة، وقلوبهم مسرورة، قد رضوا بالقضاء والقدر، وأراحوا قلوبهم عن الهم والكدر[3]، **أما في الآخرة** فالنفي للخوف والحزن

(1) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص:171).
(2) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 217).
(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 520).

مطلقًا، وقيل: لا يخافون فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ولا يحزنون على ما وراءهم في الدنيا حين يتركونها[1]، والأول أرجح؛ لأنه أعم منه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾، ثم بيّن من هم أولياء الله، حتى لا يكون هذا الوصف مجهولاً للناس فيضيفونه إلى من لا يستحق، كما هو مشهور عند بعض الناس اليوم أن وليّ الله من مات ونصبت على قبرة قُبة، أو كان حيًا ولبس عمامة وجُبة، وقبّل الناس يده، وصرفوا له الهدايا، وتمسّحوا به، وغير ذلك مما يحصل من بعض العوام، مع الأحياء والأموات ممن يظنونهم أولياء، لذلك عرّف الله الأولياء في كتابه بأنهم كل مؤمن تقي، فمن حقّق الإيمان الكامل العميق الصادق، وحقّق التقوى، وهي فعل الواجبات وترك المحرمات، فهو من أولياء الله، ويتفاوت الناس في مقدار الولاية بحسب قوة إيمانهم وتقواهم، وهذا باب مفتوح للجميع، لا يختص بأسرة محددة، ولا بشخص محدد، ولا بلون محدد، ولا بجنس محدد، فالتنافس في الاستقامة متاح للجميع، والله يرفع من يشاء بإيمانه وتقواه، ويُخفض من يشاء بمعصيته وإجرامه.

وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٦٤﴾، ثم ذكر جزاءهم في الدنيا وفي الآخرة، حيث يمنحهم الله البشارة في الدنيا، وهي ما بشّر الله به المؤمنين المتقين من جنات ونعيم في الآخرة، كما ذكر الله ذلك في أكثر من آية في القرآن، أن المؤمن التقي يدخل الجنة وتجري من تحتها الأنهار ويُنعم فيها ويُخلد، أو هي بشرى خاصة

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 278).

تكون للمؤمن، مثل: الرؤيا الحسنة، فهي من المبشرات، أو أن يرى ثمرة عمله الصالح قبل موته، أو أن تظهر استقامتُه وصلاحه بين الناس فيُحبونه ويذكرونه بالخير حياً وميتاً، أو أن تُبشره الملائكة عند قبض روحه بقولها له: أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان، فهذه كلها من المبشرات الدنيوية، فالبشرى لهم في الدنيا تعم هذه الأنواع كلها(1)، ولا تعارض بينها، فهي من باب التفسير بالمثال، وأما في الآخرة فيُبشرون بالفوز والفلاح، حيث يُبشر المؤمن التقي في قبره بالجنة، لأن القبر أول منازل الآخرة، وتُفتح له طاقة إلى الجنة، ويُقال له: هذا منزلُك، ثم تُبشره الملائكة في المحشر، حين يُعطَى كتابه بيمينه، بأنه من أهل الجنة، ثم بيّن أن هذا الذي وعد الله به أولياءه المتقين قد سبق به قضاء الله وحكمه، وكُتب في اللوح المحفوظ، فلا تبديل له ولا تغيير فيه، فإن الله لا يخلف وعده، وأن دخولهم الجنة ونعيمُهم فيها هو الفوز الذي لا أعظم منه؛ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى(2).

وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٦٥﴾، **ثم التفت الخطاب إلى رسول الله** ﷺ، ونهاه عن أن يصيبه الحزن بسبب ما يسمعه من أقوالهم السيئة فيه، **كقولهم:** إنه ساحر وكاهن ومجنون ونحوها من

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 339).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:368).

الألفاظ والمواقف معه؛ فإن لفظ القول يعمّ جحودهم واستهزاءهم وخداعهم وغير ذلك[1]، **وكان ذلك يحزن النبي** ﷺ، لأنه كان شفيقاً رحيماً بهم، يُريد لهم الإيمان والخير، وهم يُعرضون عنه ويتكلمون عليه، والوقف في التلاوة على لفظ "قولهم" لازم؛ لأنك لو وصلتها بما بعدها سيبطل المعنى، **فالكافرون لا يقولون**: إن العزة لله جميعاً، بل هذا تعقيب من الله على ما صدر منهم من تكبر وإعراض وأذية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، وكأنها جواب لسؤال تقديره: وما لي لا أحزن؟، فقيل له: إن العزة ليست لهم ولا لأصنامهم، بل العزة كلها لله[2]، فاستعن بالله عليهم، وتوكّل عليه ولا تحزن، فلن يضرك قولهم. **ولا تعارض بين هذه الآية وقوله**: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[المنافقون:8]، لأن في هذه الآية بيان مصدر العزة ومالكها، وهو الله، وتلك فيها بيان لمن يمنحها الله، فعزة الرسول والمؤمنين من الله سبحانه[3]، **وذيّل الآية** بأنه هو السميع العليم؛ لأنه أحاط سمعاً بأقوال الخلائق كلها، وأحاط علماً بأحوالهم كلها، ومن كان هذا وصفه فهو العزيز القوي.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦﴾، ثم نبههم إلى أن الكون كله ملك لله وحده، فهو الخالق المدبر له المتصرف فيه، والجملة

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 129).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 357).

(3) ينظر: التفسير البسيط (11/ 252).

توطئة لما بعدها، فما هي منزلة الأصنام التي يعبدها الكفار، وماذا تملك في مقابل ملك الله؟! وترك التصريح بها تحقيراً لها[1]، **ثم بيّن** أنه ليس لديهم علم ولا يقين فيما يفعلونه وما يقولونه من الكذب والبهتان!، بل يقوم دينُهم وشركهم على الظن والشك والتخمين، بلا حجة ولا برهان لديهم عليه.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾، يذكر الله بعض نعمه على الخلق من باب الامتنان عليهم، فقد صيّر لهم الليل بهذا الوصف وهو الظلام، ليحصل لهم السكن فيه، فظلام الليل سببٌ لسكون الناس، فيتركون الحركة والخروج فيه فينعمون بنومٍ هادئ، وصيّر لهم النهار مضيئًا ليبصروا فيه مطالب أرزاقهم ومكاسبهم[2]، ففيه ينتشرون في الأرض ويبتغون من رزق الله بالتجارة ونحوها، ويقومون بعمارة الأرض، فجعل عدم الإبصار في الليل علّة للسكون، وجعل الإبصار في النهار علّة للحركة فيه، إن في هذا التسخير علامات وبراهين يفهمها ويستفيد منها قوم يسمعون الحجج والبراهين سماع تدبر وعمل.

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾، ثم أنكر الله على الذين نسبوا الولد إلى الله، من اليهود والنصارى والمشركين، والمقصود بهم هنا المشركون الذين قالوا إن الملائكة بنات الله، لأن السورة

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:669).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 32).

مكية، والقرآن المكي لم يتعرض لإبطال عقائد أهل الكتاب[1]، **وبيّن** أن قولهم هذا باطل وبهتان لا يقره عقل ولا شرع، ثم نزّه نفسه عن ذلك البهتان، بل هو الغني الغنى المطلق عن الخلق كلهم، وله ما في الكون كله خلقاً وتقديراً، وملكاً وتدبيراً، فلا حاجة إلى أن يتخذ الزوجة والولد!، ثم رد على دعواهم الباطلة، وبيّن أنها بلا دليل، فليس عندهم حجة ولا برهان على دعواهم، بل هم كاذبون في ذلك، فجميع الأدلة والبراهين الحسية والعقلية والشرعية تُكذب نسبة الولد إلى الله، فكيف تتعمدون قول الكذب على الله؟!، وهو سؤال استنكاري توبيخي لهم، لشناعة وبطلان قولهم.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾، **ثم أمر الله نبيه محمداً** ﷺ أن يبلّغ الناس أجمعين بخطورة الكذب على الله، ومن ذلك نسبة الولد والزوجة إليه، وأن من يتصف بهذه الصفة فهو خاسر وخائب في الدنيا والآخرة، وهذه سنّة مُطّردة في حق كل من كذب على الله قديماً وحديثاً، فإنه لا فلاح له في الدنيا ولا في الآخرة، وهو توعد لهم بأنهم لا يظفرون بطلب ولا يبقون في نعمة[2]، وما نرى من أحوال بعض الكفار التي يفهم منها الفلاح، كالمكانة والظهور والغنى ونحوها، فهذا ليس فلاحاً لهم، بل هو متاع زائل وقليل يتمتعون به في الدنيا، لا يساوي شيئاً مقابل ما أعده الله لهم من

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 229).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 131).

العذاب الفظيع الغليظ الذي لا أشد منه في الآخرة، بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله في الدنيا.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان إحاطة علم الله ومراقبته للخلق في جميع أحوالهم، فاحذر أن تعصيه وهو ينظر إليك.

2- بيان التعريف الصحيح للولي، وأن كل مؤمن تقي عنده من الولاية بقدر إيمانه وتقواه.

3- تنوع البشارات للمؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة.

4- بيان أن العزة مصدرها ومالكها هو الله، وأنه يمنحها للمؤمنين من خلقه.

5- بيان أهمية التفكر في آيات الله الكونية والشرعية، وأنه سبب للوصول إلى الحق.

6- بيان قُبح الكذب على الله، وأن من كذب على الله لا يُفلح في الدنيا ولا في الآخرة.

تفسير المقطع السابع من سورة يونس

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ
ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ
وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ
خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ
بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ
نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ
بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ
مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا
بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ
أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ
ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ
لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن

كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾، **أمـر الله نبيـه محمـداً** ﷺ أن يقـص على قومه خبر نبي الله نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين قال لقومه: إن كان عظُم وشق عليكم مكثي وإقامتي بينكم ووعظي وإرشادي لكم، وتذكيري لكم بالحجج والبراهين التي تدعوكم إلى الإيمان بالله[1]، وتريدون أن تتخلصوا مني، فإني قد فوّضت أمري إلى الله، فهو الذي سيمنعني منكم ويحميني من شركم، فاعزموا شأنكم ولا ترددوا في اتخاذ قراركم، وادعوا شركاءكم من الأصنام والأوثان لتساعدكم على ذلك، ثم أظهروا قراركم وأعلنوه ولا تخفوه عني ولا عن الناس، ثم بادروني ونفذوا بي ما تريدون ولا تمهلوني، وهذا القول من نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يدل على أنه كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى، وأنه كان متيقناً بأن كيدهم لا يصل إليه، ومكرهم لا ينفذ فيه[2]، وهو من أقوى آيات النبوة، فإن اجتماع عدد كبير من الناس على فرد وهو يشعر بالقوة والحفظ من الله تعالى، أمر مخالف للعادة.

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 259).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (17/ 285).

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾، فإن أعرضتم عن الإيمان بما جئتكم به، فلست السبب في إعراضكم؛ لأنني أدعوكم إلى الله مجاناً ولا أطلب منكم أجرة على دعوتي، بل أنتظر الأجر على ذلك من الله وحده، وقد أمرني الله أن أكون من المستقيمين على دين الإسلام غير تارك له، سواء قبلتموه أم لم تقبلوه[1]. **وفي الآية بيان** أن دعوة الرسل لأقوامهم كانت مجانية، ويجب أن يكون هذا هو منهج كل الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان؛ يدعون الناس إلى دين الله بدون مقابل مادي، ويطلبون أجرهم من الله، فهو الذي يتولى ثواب وجزاء من دعا إليه.

وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾، فكذبه قومه بعد أن استمر يدعوهم إلى الله تسعمائة وخمسين عاماً، بذل فيها كثيراً من الجهد والوقت، ونوّع لهم الأساليب، فدعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فما آمن معه إلا قليل منهم، والغالبية من قومه أعرضوا عن دينه ولم يُؤمنوا به، فلما حكم الله عليهم بالغرق نجى الله كل من ركب معه في السفينة، وصيّر الناجين مع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ خلفاء للهالكين يسكنون الأرض التي كانوا فيها، وأهلك الله بالطوفان الكافرين، فانظر؛ الخطاب للنبي ﷺ ويشاركه فيه جميع الخلق[2]، **أي**: تفكر أيها السامع في عاقبة من أنذرهم رسولهم الهلاك فلم يؤمنوا، كيف أهلكهم الله

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 455).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية:(3/ 133).

جميعـًا؟! وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد للمشركين[1].

وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾، **ثم أرسل الله رسلاً بعد نوح** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أقوامهم، **وهم:** هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب[2]، فجاء كل رسول إلى قومه بالحجج والبراهين والمعجزات التي تدل على صدقه، فما كان هؤلاء الأقوام ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من قبل، بل كذبوا بها كما كذب من قبلهم[3]، **والكاف** حرف تشبيه، أي: مثلما صرف الله قلوب الأمم السابقة عن الإيمان، كذلك طبع الله على قلوب الأمم اللاحقة عقوبة لهم، بسبب إعراضهم عن الحق بعد وضوحه، وسماهم معتدين؛ لأن الكفر اعتداء، فإنهم كذبوا الرسل، واعتدوا على الرسل فلمزوهم بالكذب[4].

وقولـه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾، ثم أرسل الله من بعد الرسل السابقين؛ موسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ إلى فرعون وهو حاكم مصر في عصرهما، وإلى كِبار قومه من الأشراف وأركان الدولة، بالحجج والبراهين والمعجزات الدالة على صدقهم، (فاستكبروا): السين والتاء للمبالغة، **أي:** فبالغوا في التكبر عن الإيمان وابتعدوا عنه، بعد وضوح الحجة لهم، لأنهم احتقروا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واستبعدوا أن

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 526).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 341).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 144).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 246).

يكون رسولاً من الله إليهم، لأن قومه مستعبدون لهم[1]، واستمروا على إجرامهم بالكفر والشرك وقتل بني إسرائيل واستبعادهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾، وحين أراهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المعجزات التي جاء بها إليهم، كالعصا التي تحوّلت إلى ثعبان، كفروا بها، وقالوا عنها: إنها سحر واضح، فرد عليهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كيف تصفون المعجزة التي جئتكم بها، وهي حق لا باطل فيها، بأنها سحر؟! والاستفهام إنكاري[2]، ثم أخبرهم بأن كل من يمارس السحر فهو خاسر لا يفوز في الدنيا ولا في الآخرة، وهي إشارة إلى تبرئة نفسه من ممارسة السحر.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾، فلما بيّن لهم أنه لا يمارس السحر، بل جاءهم بالبينات من الله؛ اتهموه بأن هدفه من دعوتهم إلى الإيمان بالله، هو إبعادهم وصرفهم عن دين آبائهم وأجدادهم، وأن غرضهما من ذلك هو الحصول على الملك والسلطة بدلاً عنهم، وسمي الملك كبرياء؛ لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا[3]، ثم صرّحوا بعدم التصديق لهما ولا قبول دعوتهما؛ لأن قصدهما ليس شريفًا، وهدفهما ليس نبيلاً، بل غرضهما من هذه الدعوة هو الوصول إلى

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 247).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 456).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 29).

السلطة!، وهذا ما يدل على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن الحجة، فلجأوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة، وهو الحفاظ على دين الآباء والأجداد، والتشبث بالملك والرياسة، وهما سبب للأعراض عن الحق[1].

وقد تتابع أعداء الدعوة حتى اليوم على التهمة التي اتهم بها الفراعنة موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فإذا وجدوا داعية أو عالمـًا نشيطًا في الدعوة والتعليم والإصلاح للمجتمع، وأرادوا منعه من نشاطه؛ اتهموه بأنه مخالف لدين المجتمع وعاداته، أو أنه يريد الوصول إلى السلطة والانقلاب على الحكم!.

وقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾، ولما رأى فرعون معجزة العصا واليد، وظنهما سحراً؛ أراد أن يبطل هذا السحر بحسب زعمه؛ فطلب من حاشيته وأركان حكمه أن يأتوه بكل ساحر متمرس ومتقن للسحر من سحرة مملكته، فجمعوهم له، وحصل الاتفاق بين السحرة وفرعون أن يقوموا بإبطال سحر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مقابل أن يعطيهم أجراً عظيمـًا، ويكونوا من المقربين لديه، فلما جاؤوا واجتمعوا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في مكان واحد، وفي ضحى يوم عيدهم؛ تحاور موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع السحرة، **وسألوه:** أتُلقي سحرك أم نحن نُلقي سحرنا؟، فقال لهم: ألقوا ما عندكم، ولم يصرّح بما عندهم من السحر تحقيراً له، والإلقاء رمي الشيء من اليد إلى الأرض[2]، فأراد موسى أن يكون بدء الإلقاء منهم، ليرى الناس ما

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 528).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 254).

صنعوا من سحر، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم ويقضي عليه[(1)].

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾، فألقوا ما بأيديهم من حبال وعِصي فتحولت إلى ثعابين تسعى بين يديه، فلما رآها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **قال لهم**[(2)]: إن هذا السحر الذي جئتم به سيمحقه الله فيصير باطلاً بما يظهره على يديّ من المعجزات، وقد أمر الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يُلقي عصاه، فإذا هي ثعبانٌ عظيم، أكلت كل ما صنعوا من السحر، ثم أخبر أن السحر من الفساد في الأرض، وأن الله لا يصلح عمل المفسدين، وهذه قاعدة مطّردة في كل مفسد في الأرض، فإن الله لا يُصلح له عملاً[(3)]، ويثبت الله الحق ويعليه وينصره على الباطل بالدلائل الواضحة والآيات البينة التي أنزلها في كتبه على أنبيائه[(4)]، وبما سبق من قضائه بذلك في اللوح المحفوظ، ولو كره ذلك الكافرون من آل فرعون وغيرهم.

وقوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾، ولم يؤمن لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في بداية أمر الدعوة[(5)] إلا مجموعة من شباب وفتيان بني إسرائيل[(6)]،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 286).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 135).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص:371).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 529).

(5) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 363).

(6) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:674).

وقد فعلوا ذلك وهم متخوفون من فرعون وجنوده أن يُعذبهم فيردهم إلى الكفر بالله والارتداد عن دينه، فقد كان فرعون مبالغاً في العُلو والتجبر والبطش والظلم في أرض مصر التي يحكمها، وكان متجاوزاً للحدود في فعل الكفر والإجرام. وفي الآية إشارة إلى أهمية العناية بدعوة الشباب، فهم أول من يستقبل الدعوات الصحيحة، لأن عقولهم صافية وأفكارهم نظيفة.

وقوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ ﴾، واستمر موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في دعوة قومه، فآمن له كثيرٌ منهم، فكان يعظهم ويأمرهم بالصبر والتوكل على الله، لأن المؤمن قد يبتلى من عدوه بسبب دينه حتى يظهر الصادق في تدينه من الكاذب، فكان مما قاله لهم: إن كنتم آمنتم بالله حقاً فاعتصموا به، وفوضوا أمركم إليه، إن كنتم خاضعين ومنقادين ومستسلمين لأمر الله حقاً، فذكر الإيمان والإسلام معاً، مما يدل على أن المقصود بالإيمان أعمال القلوب، **وأن المقصود** بالإسلام أعمال الجوارح، فاشترط عليهم صدق إيمانهم، وصدق إسلامهم، وصدق توكلهم حتى يأتيهم الفرَج من الله سبحانه. ودلّت الآية على أن التوكل على الله وتفويض الأمر إليه من كمال الإيمان، وأن من كان يؤمن بالله حقاً فلا يتوكل إلا على الله وحده[1].

وقوله: ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦ ﴾، فامتثلوا أمره، واستجابوا له، وتوكلوا على الله، وفوضوا أمرهم إليه، واعتصموا به، ودعوا الله أن لا يجعلهم سبباً لفتنة الظالمين، فلا ينصر الظالمين عليهم حتى لا يعذبوهم ويفتنوهم عن دينهم، ولا

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 457).

يفتتن الكفار بهذا النصر ويستمروا في الكفر، ويقولون: لو كان هؤلاء على حق لما انتصرنا عليهم[1]، فيزدادوا في الطغيان، ودعوا الله أن ينجيهم برحمته من أذية فرعون وقومه الكافرين بالله، لأنهم كانوا يلزمونهم بالأعمال الشاقة[2]، وقد استجاب الله لهم ونجاهم منهم، وأغرقهم فرعون وجنوده وهم ينظرون!.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن التوكل على الله هو أعظم سلاح للمؤمن يُقابل به أعداءه.

2- أن الدعوة إلى الله مجانية يقوم بها الداعية بلا مقابل مادي.

3- أن الإصرار على الكفر والإعراض عن أسباب الهداية سبب في عدم الإيمان.

4- أن أهل الباطل قديماً وحديثاً يتهمون الدعاة إلى الله بأنهم يُريدون مصالح خاصة من ورائها.

5- أن أخطر شيء على أصحاب السلطة أن تقترب منها أو تنازعهم إياها بأي وسيلة.

6- ضرورة الثقة بنصر الله مهما حصل للإنسان من ابتلاءات في طريق الاستقامة والدعوة.

7- أن من صفات المتوكلين الأخذ بالأسباب، ومنها: الدعاء والتضرع إلى الله.

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 364).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (8/ 370).

تفسير المقطع الثامن من سورة يونس

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ
وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا
فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ
فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ
ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ
ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا
ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣ فَإِن
كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ
مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦
وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾.

قــول الله تعــالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾، أوحى الله إلى موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأخيه هارون عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، عن طريق جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بأن يأمرا قومهما أن يتّخذوا لبني إسرائيل مساكن يسكنون فيها، وأن يجعلوها مكاناً للصلاة، وذلك لأن فرعون بعد أن أُرسل إليه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أمر بهدم أماكن عبادتهم ومنعهم من ممارسة شعائرهم ظاهراً[1]، فحصل لهم شيءٌ من الخوف كالذي حصل للمسلمين الأوائل في مكة، فكانوا يعبدون الله في بيوتهم سراً، **وقيل**[2]: أن يبنوا مساكنهم باتجاه القبلة، ويُشكِل على هذا القول: المساكن التي كانت قد بُنيت من قبل، والراجح الأول، والمقصود بالقبلة هي قبلة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهي الكعبة، قبل أن تُنسخ في شريعتهم بالاستقبال إلى بيت المقدس[3]، وأمرهم بالاستمرار بإقامة الصلاة المفروضة عليهم، وهي صلاة في الصباح، وأخرى في المساء، وأمر الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يُبشّر المؤمنين به المستمرين على الطاعة والاستقامة، وأطلق البشارة لتعم كل خير في الدنيا والآخرة، ومنها الثواب والنصر القريب.

وقولــه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 344).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:675).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 266).

يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾، ولما يأس موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من إيمان فرعون وملأه، **أي:** بعد ممارسته للدعوة معهم فترة طويلة، ووصل معهم إلى طريق مسدود؛ دعا الله عليهم بذكر نعم الله التي منحهم إياها، من الأولاد والأموال المتنوعة، ولكنهم استخدموها في الصد عن سبيل الله وإضلال الخلق عن دين الله وشرعه، واللام هنا لام العاقبة، **أي:** وتكون عاقبتهم الضلال عن دين الله(1)، لأنهم استخدموا هذه الأموال والزينة في محاربة الدعوة وإبعاد الناس عن الإيمان، فطلب موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من ربه أن يهلك تلك الأموال ويمحو أثرها عليهم، ويمسخها ويغيّرها عن هيئتها(2)، فلا يستفيدوا منها شيئًا، وأن يطبع ويختم على قلوبهم بالكفر(3)، ويجعلها قاسية بعيدة عن التأثر والاتعاظ، فلا تصل إليها الهداية، ولا يقبلوا الإيمان حتى يروا عذاب الاستئصال الذي ينزل بهم، وهو الغرق(4)، **والمعروف من منهج الأنبياء** عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أنهم لا يستعجلون الدعاء على أقوامهم إلا بعد أن يُوحَى إليهم بأن أقوامهم لن يُؤمنوا، فلا يجوز للداعية أن يدعو على من لم يستجب له؛ لأنه ليس لديه وحيٌ بذلك، بل يستمر بالدعوة إلى الله والبلاغ، والدعاء للناس بالخير والهداية حتى يأذن الله باستجابتهم.

وقوله: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾، أخبر اللهُ موسى وهارون عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ أنه قد استجاب لهما، وخاطبهما معًا،

---

(1) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 147).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 458).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 139).

(4) ينظر: تفسير القرطبي: (8/ 375).

والدعاء كان من موسى وحده، لأن هارون كان يقول: آمين حين يدعو موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[1]، وفي ذلك دليل على أن من قال: آمين على الدعاء، كان كمن دعا[2]، فأخبرهما الله أنه قد استجاب لهما ذلك الدعاء، ولم يحدد لهما وقت الهلاك، **قال ابنُ جريج وغيره من السلف** كان بين هذه الدعوة وبين تنفيذها أربعين سنة[3]، وأمرهما الله أن يستمرا في الاستقامة على الدين والدعوة إليه والثبات عليه، ونهاهما عن الانحراف عنه بسبب انحراف غيرهم من أصحاب الأهواء الذين لا يعلمون خطورة الكفر والردة عن دين الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ. وفي الآية تنبيهٌ للمسلم أن يجتهد في الدعاء، ولا يستعجل الاستجابة، وأن يترك ذلك إلى الله، فهو الحكيم العليم بما يصلح لعباده.

وقوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠﴾، وبعد فترة من الزمن أمر اللهُ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يخرج ببني إسرائيل من مصر سراً؛ فخرجوا، فتبعهم فرعون بجنوده، فنجاهم الله منه بشق البحر، وجعل لهم فيه طريقاً يبساً. فلما اجتازوه وخرجوا منه إلى الساحل؛ لحق بهم فرعون وجنودُه، وتبع أثرهم لكي يدركهم[4]، حتى إذا اكتمل دخولهم في لجّة البحر؛

(1) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 185).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 38).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 291).

(4) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 148).

أمر الله البحر أن يعود إلى هيئته، فأغرقهم الله جميعـًا؛ لأنهم لحقوا ببني إسرائيل ظلمـًا وعدوانـًا عليهم[1]، فإن من حق الإنسان أن يترك بلده ويذهب حيث يشاء، فلما أدرك فرعونَ الغرقُ؛ أعلن التصديق بما صدّقت به بنو إسرائيل، وأنه من الخاضعين المستسلمين لدين الله، إلا إن هذا القول جاء منه في وقتٍ لا يقبل فيه الإيمان ولا التوبة[2]. **والأمر العجيب** أنه من كِبره وغطرسته لم ينطق لفظ الجلالة، وكان نُطْقها أسهل عليه في تلك الحالة الصعبة من نطق تلك الجملة الطويلة.

وقوله: ﴿ءَآلْـَٔـنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾، فكان الرد عليه من الله، أو من المَلَك المُوكل بإهلاكه[3]، آلآن تُؤمن في وقت الاضطرار؟![4]، **وهو استفهام إنكاري**، أي لا ينفع الإيمان هذا الوقت وقد نزل بك عذاب الاستئصال، وقد كنت في فسحة من عمرك حين بلغتك الدعوة، ولكنك أعرضت عنها وعصيت الله بالكفر به، وكنت من الداعين والداعمين للفساد في الأرض، **وفي الحديث** أن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: "**إن جبريل كان يدسّ في فم فرعون الطين، مخافة أن يقول: لا إله إلا الله**"[5]، ولعلّ هذا الفعل كان من جبريل

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (8/ 377).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 534).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 460).

(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:677).

(5) مسند أحمد: (4/ 45)، برقم: (2144)، وصحيح ابن حبان: (14/ 97)، برقم: (6215)، وإسناده صحيح.

عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه اعتقد قبول المغفرة للتائب وإن عاين العذاب، ولم يكن عنده علم قبلها أن التوبة في هذا الوقت غير مقبولة[1].

وقوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾، ولم يقبَل الله منه الإيمان، ولم تحصل له النجاة من الهلاك، بل هلك ومات مع جنوده أجمعين، وحتى لا يشك بعض بني إسرائيل في موته؛ أمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح، وعليه درعه المعروفة به على نجوة، وهو المكان المرتفع، فرآه بنو إسرائيل، وتيقنوا من موته وهلاكه[2]، وليكون عظة وعبرة لهم حتى لا يشكوا في هلاكه، وعبرة وعظة لمن أتى بعده من الطغاة والظلمة، وعبرة لعامة الناس الذين كانوا يعتقدون أنه إلههم وربهم، والظاهر أن الأمواج بعد ذلك ألقت جثته على الساحل الغربي من البحر الأحمر من جهة مصر، فعثر عليه قومه الذين خرجوا يبحثون عنه حين بلغهم خبر الغرق له ولجنوده، فأخذوه واحتفظوا بجثته[3]، وما زالت باقية في متحفهم إلى الآن، ثم عقّب على قصته بأن كثيراً من الناس وهم الكفار لا يتعظون بهذه المعجزات الواضحة، ولا يستفيدون من الحجج والبراهين في معرفة الحق واتباعه، بل سيطرت عليهم الغفلة وتمكنت منهم. وقد كان هلاك فرعون وجنوده في البحر في يوم عاشوراء، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح[4].

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 141).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 294).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 281).

(4) ينظر: صحيح البخاري: (6/ 96)، برقم: (4737).

وقولـه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾، وبعد أن خرج بنو إسرائيل من مصر، أنزلهم الله منزلاً حسنًا وهو صحراء سيناء من بلاد الشام، فإنهم لم يعودوا إلى مصر[1]، **ووصْف الشيء** بالصدق يدل على تمامه وكماله، فإن العرب إذا مدحت شيئًا أضافته إلى الصدق؛ لأن الصدق محمود في الأحوال كلها[2]، وأرض الشام كلها أرضٌ مباركة، فقد عاشوا فيها آمنين، وأقبلوا على تزكية نفوسهم وإصلاح شؤونهم، ورزقهم الله المَنّ والسلوى وغيرها من خيرات الأرض الطيبة[3]، فما اختلفوا في أمر دينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم الذي يدعوهم إلى الألفة والاجتماع، **ويحتمل أن يكون المقصود بالعلم هنا** ما في التوراة، ويكون الخطاب لليهود السابقين الذين كانوا على عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد كانوا مجتمعين حتى جاءهم ما في التوراة من العلم والأوامر بعد غرق فرعون فاختلفوا فيها، فبعضهم آمن بها وعمل بما فيها، وبعضهم كذّب بها وخالف ما فيها[4]، **ويحتمل أن يكون المقصود بالعلم** بعثة محمد ﷺ، ويكون الخطاب لليهود الذين كانوا في عهد محمد ﷺ، فإنهم كانوا قبل بعثته مجمعين على نبوّته والإقرار بمبعثه، فلما جاءهم من غير

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 142).

(2) ينظر: تهذيب اللغة: (2/ 1990).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 281).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 142).

جنسهم؛ اختلفوا فيه، فكفر به أكثرهم، وآمن به القليل منهم(1)، **ثم عقّب الله على حالهم** بأنه سيحكم بين الفريقين المختلفين يوم القيامة، فيُجازي كل فريق بما يستحقه.

وقولـــــه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾، **الخطاب في الآيتين لنبينا محمد** ﷺ، **والمراد به** من سواه ممن يطرا عليه الشك في ذلك(2)، فإن رسول الله ﷺ لم يشك في حقيقة خبر الله وصحته، ولم يسأل، أو أن يكون الخطاب له، ولا يقصد معناه، بل يكون على عادة العرب في الخطاب، فيقول الواحد منهم لعبده: إن كنت عبدي فأطعني(3)، وهو لا يشك أنه عبده، أو على سبيل الشرط المستحيل الذي لا يقع، **مثل قوله**: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[الزخرف:81]، فمستحيل أن يكون لله ولد، فكذلك مستحيل أن يكون محمد ﷺ في شك(4)، والغرض منه إقامة الحجة على المخاطبين المحتمل حصول شك عندهم في نبوته وصدقه ﷺ، وأمره أن يسأل أهل الكتاب المنصفين، والعلماء الراسخين منهم، سؤال تقرير وإشهاد عن صفة تلك الأخبار؛ فإنهم سيقرّون لك بصدق ما

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 199).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 142).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 202).

(4) ينظر: البحر المحيط في التفسير (6/ 105).

أخبرت به، فيزول الشك من نفوس أهل الشك[1]، فقد جاء في التوراة والإنجيل صفته ﷺ، والتبشير بنبوته، ثم أخبر اللهُ نبيه محمداً ﷺ بأن الذي جاءه هو النبوة، وهي حق محض لا باطل فيها، وقد بعثه الله بالدين الحق، ونهاه عن الشك في صدق ما أنزله الله إليه، ونهاه عن التكذيب بالحجج والبراهين الواضحة التي تدل على استحقاق الله للعبادة، فإن المكذّب بها يكون من الخاسرين الذين سخِطَ الله عليهم، واستحقوا عقابه، والمقصود بهذا كله أمته ﷺ[2].

وقولــــه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾، أخبر الله عن حال الذين وجب عليهم الشقاء في علم الله الأزلي، وأنهم من الضالين الغاوين الصائرين إلى النار، فلا يوفقهم الله للإيمان[3] مهما جاءهم من الحجج والبراهين الدالة عليه، حتى يحل بهم عذاب الاستئصال[4]، وهو عذاب شديد موجع، فإذا حلّ بهم؛ رُفع عنهم غطاء الغفلة وأعلنوا الإيمان، فلا يُقبل منهم حينئذٍ لذهاب وقته، ولا ينفعهم إيمانهم كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أدركه الغرق!.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 284).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:678).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص:374).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 288).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أهمية الصلاة وأنها مشروعة في كل الشرائع، ووجوب إقامتها في كل الأحوال.

2- بيان جواز الدعاء على الظالم بالهلاك ونحوه.

3- بيان أهمية استمرار الداعية في الدعوة حتى لو أعرض عنه الناس.

4- أهمية الاستقامة العملية للداعية، فإن الدعوة بالقدوة أقوى من الدعوة بالكلمة.

5- بيان خطورة الاستكبار والطغيان على العبد وهو في أسوأ مراحله.

6- أن نجاة فرعون وهو جثةً هامدة كان لقطع الشك على الناس في هلاكه.

7- أن التوبة لا تقبل من العباد عند نزول عذاب الاستئصال بهم.

تفسير المقطع التاسع من سورة يونس

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ
عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن
تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا
مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ
نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ
فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ
أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا
تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ
ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ
مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ
ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾
وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾، **هذه الآية فيها بيان** لما حصل لقوم يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فهم القوم الوحيدون الذين كفروا برسولهم في أول أمرهم، ثم تابوا وآمنوا قبل أن ينزل بهم العذاب، فقبل الله إيمانهم ومتّعهم إلى آخر أجلهم، **وقصتهم بإيجازٍ:** أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أرسل يونس بن متّى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى أهل نينوى من أرضِ الموصل في العراق، وهي اليوم أطلال وآثار على الضفة اليسرى لنهر دجلة، مقابلة لمدينة الموصل من جهة الشرق، والنهر بينهما[1]، فدعاهم إلى الإيمان وترك الشرك والكفر، فلم يُصدقوه، فأنذرهم العذاب الأليم، ثم غضب منهم فتركهم دون أن يستأذن ربه بالهجرة، والهجرة عملٌ مشروع ولكنه بالنسبة للأنبياء مشروط بإذن الله لهم، فلما فقده قومه خافوا نزول العذاب بهم وأحسوا بالخطر؛ فخرجوا بأنفسهم ونسائهم وأطفالهم وشيوخهم يجأرون إلى الله مؤمنين خاضعين له، تائبين من ذنوبهم توبةً نصوحًا، فرفع الله عنهم العذاب قبل أن ينزل بهم، وأبقاهم إلى نهاية أجلهم بسبب إيمانهم[2]، **وهذا يدل** على أن عذاب الاستئصال له أجل آخر مرتبط بكفرهم، وكلاهما مكتوب في اللوح المحفوظ.

ومعنى الآية: أن الإيمان عند معاينة العذاب لم ينفع أهل قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقد كشف الله عنهم العذاب وقبِلَ توبتهم لما

---

(1) ينظر: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة: (ص:291).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 297).

علم من حسن نيتهم[1]، ورفع عنهم عذاب الهوان بعد أن اقترب منهم، وتركهم في الدنيا يستمتعون بها إلى وقت انتهاء آجالهم. والآية إنذار وتهديد لكفار قريش، حتى ينتبهوا لأنفسهم ويأخذوا العظة والعبرة من قوم يونس حين آمنوا فرُفع عنهم العذاب.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ٩٩﴾، **ثم بيّن أن الله سبحانه** أنه لو شاء لجعل أهل الأرض كلهم جميعًا يؤمنون بمحمد ﷺ، ولكنه لم يشأ ذلك، وهذه هي المشيئة الكونية الأزلية المكتوبة في اللوح المحفوظ التي لا يطّلع عليها أحد من الخلق، والناس يعملون وفقًا لها، فمن وفقه الله للإيمان فهو ممن سبقت له السعادة في الأزل، ومن لم يُوفقه الله للإيمان فهو ممن سبقت عليه الشقاوة[2]، فمهما حرصت على هدايته فلن يهتدي، والواجب عليك يا محمد هو بيان الحق للناس ونصحهم وإرشادهم إليه، وليس إدخال الإيمان إلى قلوبهم، والاستفهام إنكاري، فجعل حرصه ﷺ على إيمان أهل مكة واهتمامه بذلك كمن يحاول إكراههم على الإيمان[3]. **ويستفاد من ذلك** أنه لا يجوز إكراه الآخرين على الإيمان، فمن باب أولى ما دونه من الأفكار والمذاهب، بل يقنعهم بالحجة والدليل؛ لأن الإكراه على العقائد لا يوجد مؤمنين صادقين، وإنما يوجد

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 319).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 153).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 293).

منافقين يظهرون الموافقة ويبطون المخالفة، وسرعان ما يتخلون عن الفكرة عند زوال الإكراه!.

وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ على ما يلاقيه من قومه من كفر وإعراض، وفيها إرشاد وتوجيه لكل الدعاة إلى الله بعده أن لا يكرهوا الناس على أي فكرة يدعون إليها مهما كانت صحيحة، لا ترهيباً ولا ترغيباً، بل يدعونهم بالحجة والبرهان، فمن اقتنع بها فهو المستفيد منها، ومن تركها فهو الخاسر، وأما الداعية فإنه مأجور على دعوته ولو لم يستجب له أحد!.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، **ثم بيّن** أن الإيمان الصحيح لأي شخص لا يتم إلا بتوفيق الله له، فيؤمن ظاهراً وباطناً، فمن آمن فبتوفيق الله، ومن كفر وأعرض عن الإيمان فقد استحق سخط الله وعذابه[1]، ولو أنه استخدم عقله وتفكر في الحجج والبينات لهداه تفكيره إلى الإيمان، ولكنه ألغى عقله واتبع هواه، فضلّ عن الحق والهدى، **فمثلاً:** لو نظرت في حال شخص هندي يكون عالماً في التقنية ويصنع الأجهزة الدقيقة، فتستغرب من ذكائه وفطنته في ذلك، ثم تنظر إليه وهو يعبد البقرة ويتمسّح ببولها، فيتضح لك أنه استخدم عقله في أمر التقنية، ولم يستخدم عقله ولم يتأمل فيه في باب العقائد ومعرفة الحق، فصح أن يوصف هذا وأمثاله بأنهم لا يعقلون ما أراده الله منهم.

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 145).

وقولـه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾، ثم أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يطلب من الكفار أن ينظروا نظر تفكر وتأمل في كل ما في السموات من شمس وقمر ونجوم ونحوها من المخلوقات، وفي الأرض من جبال وأشجار وأنهار ونحوها من المخلوقات، فكلها تدل على وحدانية الله الخالق لها، وأنه هو المستحق للعبادة؟! فلو تفكروا فيها لدفعهم ذلك التفكر إلى الإيمان به سبحانه، ولكن الله كتب عليهم الشقاء في الأزل وعلم أنهم لا يؤمنون[1]، فحجب قلوبهم عن الانتفاع بتلك الآيات، وعن الحجج البينات التي جاءت بها الرسل لعنادهم وإعراضهم عنها، وعدم استعدادهم للتصديق بها.

وقولـه: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾، فهل ينتظر هؤلاء المكذبون بك يا محمد: إلا أن ينزل بهم عذاب الله ووقائعه التي نزلت بمن سبقهم من الأمم السابقة، مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، الذي كانوا على مثل الذي عليه كفار قريش من الشرك والتكذيب[2]، فقل لهم: انتظروا عذاب الله وعقوبته بكم، فإني من المنتظرين لذلك معكم، وهو أسلوب خبري لكنه يفيد التهديد والوعيد لهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾، فإذا نزل بالكفار عذاب الله الذي كانوا ينتظرونه، فإن الله ينجّي منه الرسل

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 467).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 215).

والذين آمنوا معهم، والكاف للتشبيه، فكما نجينا الرسل وأصحابهم؛ ننجي كل مؤمن مثلهم، وهو حق لهم أوجبه تعالى على نفسه الكريمة[1]. **وفي الآية وعدٌ من الله** لكل مؤمن بالله ورسله في كل زمان ومكان بنجاته من عذاب الاستئصال الذي ينزل بقومه المكذبين.

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾، أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يخبر الناس، والمقصود بهم المشركون من أهل مكة[2]، ويلحق بهم كل من يشك في صحة دين الإسلام، بأنه لا يشك في دينه، بل يعلم علماً يقينياً أنه الحق، وأنه لن يعبد الأصنام والأوثان العاجزة عن فعل شيء في الكون، بل يعبد الله المالك المتصرف في الكون كله، خلقاً وإيجاداً، وإحياءً وإماتةً، وخص الوفاة بالذكر؛ لأنها تتضمن التهديد لهم، فإنها ميعاد عذابهم[3]، **وقد أمره الله** أن يكون من زمرة من آمن بالله وأخلص دينه له. وفي الآية إشارة إلى استخدام أسلوب الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فالخالق الرازق المتصرف القادر هو الذي يستحق أن يُعبد وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾، **والمقصود بالوجه هنا** هو الذات، وخص الوجه بالذكر؛ لأنه أشرف الأعضاء،

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 299).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 332).

(3) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 353).

يُقال: فأمره الله أن يُقبل بكل جوارحه على دين الله الحق ويجمع له همته، ويستمر عليه، ولا يلتفت عنه يميناً ولا شمالاً، مائلاً عن الشرك إلى التوحيد الكامل(1)، ونهاه عن مشابهة المشركين الذين وقعوا في الشرك الأكبر أو الأصغر، والخطاب لرسول الله ﷺ، والمقصود به أمته، أما هو فلم يقع منه الشرك قبل الإسلام ولا بعده.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾، الخطاب للرسول ﷺ، **والمقصود به** أمته، فإنه كان إمام الموحدين، فنهاهم عن عبادة ودعاء غير الله من الأصنام والأوثان التي لا تنفع من عبدها، ولا تضر من ترك عبادتها، فمن خالف أمر الله وعبد أو دعا غير الله؛ فقد لحق بزمرة الظالمين الضارين لأنفسهم بشركهم بالله.

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾، **أخبر الله نبيه محمداً** ﷺ والخلق أجمعين بأن الأمر بيد الله وحده ضراً ونفعاً، وليس بيد غيره شيء من ذلك، فالنافع والضار هو الله، فإن أصابك الله -يا محمد- بضر من مرض أو فقر أو خوف ونحوه، فلا رافع لذلك الضر عنك إلا الله، فالجأ إليه وادعُه وحده لا شريك له، وإن حلّ بك خير من الله، فلا يستطيع أحد رده عنك ولا حرمانك منه، وهو فضل ومنّة من الله عليك، فإن الله يمنح الخير لمن يشاء من خلقه. **والتذييل بجملة:** (وهو الغفور الرحيم)، يشير إلى أن إعطاء الخير

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 468).

فضل من الله ورحمة منه، وتجاوز عن سيئات عباده الصالحين وتقصيرهم[1].

وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾، **ثم أمر رسوله محمداً** ﷺ أن يخاطب الناس جميعـاً بأن الله قد منّ عليهم ببعثته ونزول القرآن عليه، وجاءهم بالدين الحق الذي لا ريب فيه، وقد يسّر لهم فيه هداية الدلالة والإرشاد والدعوة والتعليم، فمن وفقه الله واهتدى إليه وعمل به؛ فثواب عمله وأجره وفائدته تعود عليه، ومن أعرض عن أسباب الهداية وانحرف عنها فلم يوفق إلى الحق وضل عنه؛ فإثم ضلاله ووزره يعود عليه، وليس لله حاجة في شيء من ذلك، وأخبرهم أنك -يا محمد- لست بضمين على الخلق، ولا بحفيظ عليهم تحفظ أمورهم، أو تدخل الإيمان إلى قلوبهم، إنما أنت بشير ونذير لهم[2].

وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾، أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يستمر على طاعة الله والتمسك بدينه الذي أوحاه الله إليه، وأن يصبر على أذى الكفار له حتى يقضي الله بينه وبينهم بحكمه العدل، فهو خير الحاكمين، **وقد امتثل** ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان[3]. **وفي ذلك توجيه** لكل من جاء بعده من الدعاة إلى يوم القيامة أن يسير بسيره، وأن يقتفي في ذلك أثره!.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 307).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 543).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص:376).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الإيمان الصادق سبب في رفع عذاب الاستئصال.

2- أن الإيمان لا يصح بالإكراه، وإنما يكون بالإقناع بالحجة والبرهان.

3- أن البراهين والحجج البينات التي أتت بها الرسل لا تنفع من أعرض عنها.

4- وجوب الاستقامة على دين الله الصحيح حتى الموت.

5- أن الشر والخير بيد الله، وأن الله يوفق للخير من يشاء، ويصيب بالشر من يشاء.

6- وجوب اتباع الكتاب والسنة، والدعوة إليهما، والصبر على ذلك.

تفسير سورة هود

تفسير سورة هود

تفسير المقطع الأول من سورة هود

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ
نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي
فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٌ ٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا
وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ
وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم
مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا
عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ
إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ
عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ
كَبِيرٞ ١١ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ
كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢ ﴾.

شخصية السورة:

سورة هود؛ سورةٌ مكية[1]، نزلت قبل الهجرة، **ومن مقاصدها:** تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين معه في مكة، بذكر قصص الأنبياء الذين سبقوه وكذّبهم أقوامُهم فأهلكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وافتتحت بقوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾، وهي من السور التي بدأت بالحروف المقطّعة، **والراجح في تفسيرها** أنها أحرفٌ من أحرف الهجاء، تتكوّن منها لغة العرب، وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، فإن القرآن مركّب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها، ومع ذلك عجزوا عن معارضته بمثله.

ثم أخبر عن القرآن الكريم بأنه كتابٌ أحكم الله آياتِه، والإحكام هو الإتقان، فيشمل أنواع الإحكام كلها، فهي محكمة الألفاظ والمعاني، قد نظمت نظماً رصيناً لا يقع فيه نقص ولا خلل[2]. **والتفصيل هنا** هو التبيين والتوضيح، فآياته قد بيّنت الأحكام كلها التي يحتاج إليها الخلق، من الأدلة على التوحيد، والنبوة، والمعاد، والحلال، والحرام، والمواعظ، والقصص ونحوها، وهو منزّل من عند الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بما تؤول إليه عواقب الأمور كلها، فالحكيم مقابل الإحكام، والخبير مقابل التفصيل، وهما متعلقان بالعلم والقدرة[3]،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 302).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 46).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (11/ 315).

فالعليم القادر هو الذي أحكم آيات القرآن ثم فصّلها وبيّنها.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾، **والغاية من إنزال هذا القرآن المحكم** في لفظه ومعناه، المفصّل في أحكامه؛ هي أمر العباد بعبادة الله وحده لا شريك له، **وقل لهم يا محمد:** إن الله أرسلني إليكم لأُنذركم عذاب الله وسطوته لمن عصاه، وأبشركم بثوابه ورضوانه لمن أطاعه، فالنذارة للمكذبين، والبشارة للمؤمنين، أعظم مهمات الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٖ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٤﴾، وأمره أن يرغبهم بالاستغفار لما سبق من ذنوبهم، وأن يتوبوا من كل ذنب وقعوا فيه، لأن الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين[1]، بل الاستغفار والتوبة عملان متلازمان، وثمرتهما أن يمتعهم الله المتاع الحسن، وهو العيشة الرضية، والسعادة القلبية، والراحة النفسية، التي يشعر بها المؤمن المستغفر التائب، وهي راحة الإيمان والطاعة، وهي جنة الدنيا، فمن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، والكافر ليس في شيء من هذا كله[2]. **والأجل المسمى هو** الزمن المحدد للحياة الذي كتبه الله للإنسان حتى يأتيه الموت[3]، وأن الله يُجازي كل إنسان بعمله الصالح، الحسنة بعشر أمثالها، إلى أضعاف كثيرة، وهذا من فضل الله وكرمه على

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (9/ 3).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 149).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 378).

عباده المؤمنين في الدنيا والآخرة. وحذّرهم من الإعراض عن الإيمان والاستغفار والتوبة والعمل الصالح في الدنيا، فمن فعل ذلك فجزاؤه في الآخرة أن يناله عذاب كبير حجمه، وشديد ألمه، والخلق كلهم راجعون إلى الله بعد موتهم، ثم يبعثهم ويحاسبهم، ولا يُعجزه شيء سبحانه، فقدرته نافذة في كل شيء.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾، **أخبر الله عن حال بعض الكفار المعرضين عن الإيمان**، بأنهم يخفون العداوة والحقد على محمد ﷺ، والكفر به[1]، ويُحاولون ألّا يُظهروا ذلك ليستخفوا بعملهم هذا من الله، ويظنون أن الله لا يعلم بما في صدورهم، **وقيل:** إنهم كانوا إذا رأوا محمداً ﷺ عطفوا رؤوسهم وأثنوا صدورهم ليتخفوا منه حتى لا يروه[2]، **والراجح الأول**، للسياق. وكانوا كذلك يُغطون وجوههم بثيابهم حتى لا ينظروا ولا يسمعوا من النبي ﷺ القرآن والموعظة[3]، **والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ** يعلم سرهم وجهرهم، ومطلع على أحوالهم، ومهما استخدموا من أساليب المكر والخداع، فإن الله يعلم ما تُخبئه صدورهم من الخواطر والوساوس والعقد والعداوة، وسوف يحاسبهم على ذلك. والأسلوب خبري ولكنه يفيد التهديد والوعيد لهم.

---

(1) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 3).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (2/ 457).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:684).

قولــه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾، وأخبر الله عن تكفّله برزق جميع الحيوانات التي تدبَّ على وجه الأرض، تفضلاً منه، لا وجوباً عليه، وأخبر عن إحاطة علمه بها، فهو يعلم المكان الذي تسكنه، ويعلم المكان الذي تذهب إليه وتبحث عن رزقها فيه، ويعلم بها وهي نطفة في صُلب الذكر، ويعلم بها حين تودع في رحم الأنثى، ويعلم تفاصيل حياتها في الدنيا، ويعلم مكانها الذي تودع فيه بعد الموت[1]. وذلك كله مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقها ويوجدها.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾، وهو خلق وأوجد السموات والأرض وما فيهما في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا المعروفة، لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء[2]، وقد خلقهما في هذه المدة تنبيهاً لنا على سنّة التدرج، وإلا فالله قادرٌ على أن يخلقهما في لحظة. وخلق العرش وهو سرير الملك، وهو أعظم المخلوقات قبل أن يخلق السموات والأرض، وكان محمولاً على الماء. وقد سُئل ابن عباس: على أي شيء كان الماء؟ فقال: **"على متن الريح"**[3]، وهذا يدل

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 241).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 547).

(3) مصنف عبد الرزاق الصنعاني (5/ 90)، برقم: (9089)، السنة لابن أبي عاصم: (1/ 258)، برقم: (584)، المستدرك على الصحيحين للحاكم: (2/ 400) برقم: (3353)، وصححه الألباني في ظلال الجنة: برقم: (584).

على أن الماء والعرش خُلقا قبل السموات والأرض[1]، فلما خلق السموات السبع جعل العرش فوقها، واللام للتعليل[2]، **فالحكمة من خلق السموات والأرض** هي اختبار الخلق بالتكاليف الشرعية ليظهر من هو الأحسنُ عملاً لها. **والعمل الحسن** هو العمل الصالح الخالص لله الموافق للسنة. ولو قلت يا محمد للمشركين: إن الله سيبعثكم بعد الموت؛ لما قبلوا منك هذا القول، وقالوا: إنه باطل بيّن كبطلان السحر[3]، أو لقالوا: إن القرآن الذي يخبر عن البعث بعد الموت سحر واضح[4].

وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾، وإذا أخّر الله عن الكفار والمكذبين عقوبة العذاب الدنيوي إلى أمد ووقت محدد[5]، وهو نهاية أجلهم الذي كتبه الله لهم، لتساءلوا عن سبب تأخره استعجالاً منهم واستهزاء به[6]، فأخبر الله أنه نازل بهم لا محالة في موعده المحدد، ولن يتأخر عنهم، ولا يستطيع أحد أن يصرفه عنهم، بل سيحيط بهم العذاب من جميع الجهات، ولا يستطيعون الفرار ولا النجاة منه.

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 40).
(2) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 7).
(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 40).
(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:686).
(5) ينظر تفسير ابن كثير: (4/ 308).
(6) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 474).

وقولــه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾، يخبر الله عن طبيعة الإنسان، وهو اسم جنس يشمل الكافر والمؤمن[1]، فإذا منحه الله رحمة، وهي ما يحبه من النعم، كالمال والصحة والأولاد ونحوها، ثم أخذها الله منه ابتلاءً له؛ فإنه يُصاب باليأس والقنوط وجحود النعمة، ولا يصبر ولا يحتسب، ولا يخطر بباله أن الله سيعوضه خيراً منها.

وقوله: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠﴾، أي: وإذا منحه الله النعم وظهرت آثارها عليه بعدما أصابته النقم والمصائب؛ فإنه يعلن للآخرين أنه قد تخلص مما يسوؤه من المصائب والأحوال، ونسب ذلك إلى نفسه لا إلى الله، ونسي شكر الله على ذلك، وظن أن ذلك الخير سيدوم معه، وظهر عليه الفرح المذموم، وهو فرح البطر والأشر، والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق واحتقارهم، والتباهي والتفاخر بما أعطاه الله من النعم[2].

وقولــــه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾، استثنى الله من هذا الخلق الذميم؛ المؤمنين الصابرين على النقم، الشاكرين للنعم، العاملين للأعمال الصالحة من واجبات ومستحبات، ووعدهم الله على ذلك المغفرة لذنوبهم، والأجر الكبير على حسناتهم وأعمالهم الصالحة، وهو: الفوز بجنات النعيم.

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (9/ 11).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:378).

وقولــــه: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢ ﴾، ثـم خاطـب الله نبينا محمداً ﷺ مسلّيًا له مما كان يلقاه من تعنت واقتراحات يطلبها منه الكفار، وكانوا لا يقبلون منه القرآن ويستهزئون به، فكان صدر رسول الله ﷺ يضيق من ذلك؛ لأنه يخاف الله في كتمانه وترك إظهاره، ويخاف لائمتهم في الإظهار[1]، فوعظه الله بأنه لا ينبغي أن يؤثر قولهم هذا فيه، ويصده عما هو عليه من البلاغ، فيترك بعض ما يوحى إليه ولا يبلغهم[2] مخافة أن يقولوا: لو كان معه مال كثير يعيش عليه، أو جاء معه ملك يدعو بدعوته ويشهد له بها حتى نصدقه، فإن تحمل هذا الضرر أهون من كتم شيء من الوحي، فأهّله الله بهذا الخطاب لأداء الرِّسالة، وطرح المبالاة بكلماتهم الفاجرة، وترك الالتفات إلى استهزائهم[3].

فمهمته هي تخوفيهم وإنذارهم عواقب الشرك والكفر والمعاصي، وليس إدخال الإيمان إلى قلوبهم، ولا إنزال المعجزات الموافقة لاقتراحاتهم، والله هو الرقيب والحفيظ على كل شيء، وهو الذي يقضي بما شاء من إيمانهم أو كفرهم، ثم يجازيهم يوم القيامة على أعمالهم.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 362).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:378).

(3) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: (10/ 447).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن آيات القرآن مُحكمة، وأحكامه مُفصّلة ومُبيّنة.

2- فضل الاستغفار والتوبة وأثرهما في الراحة النفسية والاطمئنان والسعادة الدنيوية والأخروية.

3- إحاطة علم الله بكل ما يدبّ على الأرض وتكفّله بأرزاقها.

4- بيان أن الحكمة من الخلق هو الاختبار لهم لمعرفة من يُحسن العمل ممن يُسيئه.

5- من صفات المؤمن الصبر على الضراء، والشكر على السراء.

6- من صفات الكافر اليأس والقنوط عند الضراء، والفرح والفخر عند السراء.

تفسير المقطع الثاني من سورة هود

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ
أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ
مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ
شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ
مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾
أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ
لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ
ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ

أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ
وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾، يخبر الله عن كفار قريش بأنهم كانوا يقولون: إن محمداً ﷺ اختلق القرآن وكذبه من عند نفسه عمداً بلا شبهة له فيه[1]، **والاستفهام** إنكاري، **والمعنى**: قل لهم يا محمد: أنتم أهل الفصاحة والبلاغة فأتوا بعشر سور من سور القرآن التي تزعمون أن محمداً ﷺ أتى بها من عند نفسه، واستعينوا على ذلك بمن استطعتم من الخلق، إن كنتم صادقين في دعواكم أن القرآن مفترى من عند محمد ﷺ. ويدلُّ ذلك على أنَّ هذا الطلبَ جَاءهُم على سبيلِ التحدِّي.

قوله: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾، فإن عجزوا عن ذلك ولم يستطيعوا أن يعارضوا القرآن بمثله، **والضمير يعود للنبي** ﷺ والمؤمنين، لأن التحدي للكفار كان من قبلهم[2]، فأيقنوا أيها الناس جميعاً أن القرآن كلام الله، وأنه ليس مفترى، بل أنزله الله بعلمه على رسوله وحياً بواسطة جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو حجة عليكم، ودليل على استحقاق الله وحده للألوهية، فهل أنتم خاضعون مستسلمون

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 19).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 476).

مطيعون لله الذي أنزله على رسوله ﷺ، والسؤال تقريري معناه الأمر لهم بالاستسلام للحجة وترك الإعراض عنها[1].

وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾، ثم بيّن حال الكفار الذين كل همهم وإرادتهم في الحياة الدنيا هو التمتع بها وبزينتها، وهي المذكورة في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾[آل عمران:14]، فيصرفون رغبتهم وسعيهم في تحصيل هذه الأشياء ونحوها، ولم يجعلوا للآخرة من إرادتهم وأعمالهم شيئًا، فإن الله يوفّيهم أجور أعمالهم الصالحة في الدنيا، كصلة الرحم أو الصدقة، بصحة البدن، وكثرة الرزق، والسمعة، ونحوها، ولا يُظلمون شيئًا من أجورهم، بل يُعطيهم الله حقهم كاملاً غير منقوص، ولكن لا حظّ لهم من الأجر والثواب في الآخرة، بل لهم النار عقوبة لهم لكفرهم بالله[2]، وبطل وفسد كل عمل من أعمال الخير فعلوه في الدنيا، فلا يبقى لهم أجر عليه في الآخرة؛ لأنه لم يقرن بالإيمان الذي هو شرطٌ في قبوله[3].

وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:690).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 156).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص:379).

إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾، بعد أن ذكر الله حال الكفار وإرادتهم الدنيا بأعمالهم، وكفرهم بالحق وإعراضهم عنه؛ ذكر حال محمد ﷺ والمؤمنين[1]. **والهمزة** للاستفهام التقريري[2]، **والتلاوة في اللغة تأتي بمعنى** القراءة، **وتأتي بمعنى** الاتباع، **وهي هنا بمعنى** ويتبعه شاهدٌ منه[3]، وهو الفطرة والعقل[4]، وأضاف إليهم دليلاً ثالثًا، وهو التوراة، كتاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي جعله الله إمامًا لبني إسرائيل يأتمّون به، ورحمةً من الله لهم[5]. **والمعنى**: إن كفر بالقرآن المشركون لجهلهم وضلالاتهم؛ فقد آمن به من تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، من الوحي والفطرة والعقل وشهادة السابقين له. واسم الإشارة (أولئك) يعود إلى المؤمنين الذين يُؤمنون بما جاء به الرسول ﷺ. ومن كفر به من أهل المِلل والطوائف المتحزبة ضد الحق قديمًا وحديثًا فالنار جزاؤه ومصيرُه وعقوبتُه، **وفي الحديث**: **"والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار"**[6].

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:692).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 26).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 43).

(4) ينظر: تفسير السعدي: (ص:379).

(5) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 277).

(6) صحيح مسلم: (1/ 134)، برقم:(153).

ثم خاطب الله رسوله ﷺ، **والمقصود بالخطاب** أمتُه، فنهاهم عن الشك والارتياب في القرآن، فإنه حق لا شك فيه، ولكن أكثر المشركين لا يؤمنون به؛ لجهلهم وإعراضهم عنه مع توافر الأدلة والبراهين والحجج على صدقه.

وفي الآية إشارة إلى بيان حال من آمن بالله واتبع دينه الصحيح بدلائل متعددة عليه، وحال من يعبد غير الله ويريد بعمله الدنيا بجهل من غير دليل ولا حجة.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾، يخبر سبحانه أنه لا أحد أكثر ظلماً لنفسه ممن كذب على الله ونسب إليه الشريك، أو الولد، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من أنواع الكذب على الله، فكل من فعل ذلك فإنه يُعرض على الله لمحاسبته وعقوبته. وخصهم بالعرض مع أن كل الناس يُعرضون على الله؛ لأن عرضهم من نوع خاص، فهو عرضٌ شديد للتشهير بهم والتحذير من فعلهم القبيح، والاستفهام تقريري[1]. ثم ينطق الله الشهود عليهم، وهم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم في الدنيا[2]، بإثبات كذبهم على الله، ثم يصرّحون بلعنهم وطردهم من رحمة الله بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والكذب على الله، وقيل: المقصود بالأشهاد الحضور، وهم جميع أهل المحشر من الخلائق[3]، **كما في الحديث:** "يُدنى

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 159).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 282).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:693).

المؤمن يوم القيامة من ربه عَزَّوَجَلَّ**، حتى يضع عليه كنَفَه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون، فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله"**[1]. **والفائدة** من إخبار الأشهاد بما الله يعلمه؛ هي تعظيم الأمر على المشهود عليه، وحسم طمعه من التبرؤ من ذنبه بالمجادلة والمدافعة[2].

وقولــــه: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾، وصف هؤلاء الظالمين الذين كذبوا على الله بأنهم كانوا يمنعون الآخرين عن الإيمان بالله، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الجنة، بتشويهه ووصفه بأنه طريق غير معتدل[3]، بل منحرف باطل، حتى لا يذهب إليه أحد، وهذا العمل متوارَث بين المِلل الكافرة ومستمر حتى اليوم. وما تشاهدونه اليوم من حملات قبيحة لتشويه الإسلام يقوم بها أعداء الله، هو امتداد لهذا المنهج، والهدف منها صرف الناس عن الدخول في الإسلام والاستقامة عليه. **ثم وصف الله هؤلاء الكفار** بأنهم لا يُؤمنون بالآخرة؛ لأنهم يُنكرون البعث والنشور، والجزاء والحساب.

وقولــه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾، وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات لا يفلتون من عذاب الله إذا أراد الانتقام منهم، بل

(1) صحيح مسلم: (4/ 2120)، برقم: (2768).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 379).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 314).

هم في قبضته وملكه، ولا يقدرون على الامتناع منه، ولا الفرار من عذابه[1]، فإن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولكنه يُمهلهم حتى ينتهي أجلهم المكتوب لهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وخص الأرض بالذكر؛ لأنها منشأهم ومكان كفرهم وتكبرهم، وليس لهم مَن ينصرهم ويحميهم حين ينزل بهم الهلاك في الدنيا، وفي الآخرة يُغلِّظ الله لهم العذاب في جهنم ويُشدد عليهم فيها بسبب شدة كفرهم، فإن عذاب الله يتناسب مع نوع الكفر والجرم الذي يرتكبه العبد، وهؤلاء كانوا دعاة إلى الضلالة، فيأخذون جزاء وزرهم ووزر من أضلوه من أتباعهم، وقد كانوا في الدنيا لا يسمعون الحق سماع استفادة، ولا يُبصرون الحق بصر انتفاع، بسب كِبرهم وإعراضهم، وشدة كفرهم وعداوتهم للنبي ﷺ[2].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢﴾، يبيّن أن مصير هؤلاء الكفار في الآخرة هو الخسران الكبير، حين يقْذفون في النار ويخلدون فيها، فيضيع عنهم كل ما كانوا يعبدونه من دون الله من الآلهة التي كانوا يزعمون أنها تشفع لهم أو تنفعهم، وثبت حقًا وصدقًا أنهم الأكثر خسارة في الآخرة[3]، فلا أحد أكثر خسارة منهم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 479).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 45).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص:380).

ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾، ومن طرائق القرآن أنه إذا ذكر أهل النار يذكر بعدهم أهل الجنة، فلما انتهى من الحديث عن الكفار والمجرمين وعن صفاتهم وعذابهم في الآخرة، أتبعهم بذكر حال المؤمنين الذين كانوا يعملون الصالحات في الدنيا، وكانوا متواضعين خاشعين لله في كل أحوالهم. **والإخبات في اللغة:** الخشوع والتواضع والطمأنينة، **وأصله من الخبت وهو:** ما انخفض من الأرض[1]. فجزاؤهم في الآخرة أنهم يدخلون الجنة ويتمتعون بنعيمها المقيم، ولا يخرجون منها أبداً.

وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ثم شبّه الله الفريقين، وهم فريق الكافرين، وفريق المؤمنين، بتشبيهين لكلٍ منهما[2]، فشبّه الكفار بالأعمى الذي لا يرى الأشياء، والأصم الذي لا يسمع الأصوات، وشبّه المؤمنين بالبصير الذي يرى الأشياء، والسميع الذي يسمع الأصوات، **ثم سألهم:** هل يستوي هذا مع هذا في نظركم؟ **الجواب:** لا، فكذلك لا يستوي الكافر مع المؤمن عند الله، **كما قال:** ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾[القلم:35]، فلا يستوون في استقبال الحق وفهمه، ولا يستوون في المكانة عند الله. أفلا تتعظون وتعتبرون أيها المشركون من هذا المثل، فتتركون ما أنتم عليه من الكفر والشرك بالله، وتسارعون إلى الإيمان بالله. **والاستفهام** إنكاري[3].

---

(1) ينظر: تهذيب اللغة: (1/ 973).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:694).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 43).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن القرآن معجز بنفسه، فلا يقدر أحد من البشر أن يأتي بسورة من مثله.

2- بيان عدل الله تعالى مع الكفار الذين يفعلون الخير في الدنيا بمنحهم جزاء ذلك في الدنيا.

3- بيان خطورة الافتراء والكذب على الله، وشدة عقوبته في الآخرة.

4- بيان استمرار الأعداء في حملات تشويه الإسلام لصرف الناس عنه والاستقامة عليه.

5- أن القرآن إذا ذكر حال أهل النار؛ فإنه يذكر بعدهم حال أهل الجنة، للعظة والعبرة من حال الفريقين.

6- بيان أن الكافر الذي لا ينتفع بسمعه ولا ببصره انتفاعًا يدعوه للإيمان، لا فرق بينه وبين الحيوان.

تفسير المقطع الثالث من سورة هود

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ
نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ
فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا
عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾
وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ
بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا
تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا
يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا
تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا
كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم
مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ

﴿إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾، **يُخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بأنه قد أرسل نوحًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى قومِه لكي ينذرهم ويخوفهم عذاب الله، ويبيّن لهم عقوبته بهم لو استمروا على كفرهم وتكذيبهم له، وأمره أن يدعوهم إلى التوحيد، وإفراد الله وحده بالعبادة، وطاعته والخضوع له سبحانه، وترك الشرك به، وعبادة الأصنام، وأنه حريص على إيمانهم لأنه يخاف عليهم إن استمروا على الكفر نزول الهلاك بهم في الدنيا، وحصول العذاب الأليم لهم يوم القيامة.

وفي الآية إشارة إلى الصفة العامة لكل الرسل، وهي الشفقة والرحمة على أقوامهم، والحرص على هدايتهم، وإبعادهم عن أسباب الهلاك.

وقوله: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾، **الملأ هم** الأشراف والرؤساء وكبراء القوم، وهم الذين يُعارضون دعوة الرسل؛ لأنهم يخشون على مصالحهم ومناصبهم أن تذهب عنهم لو استجابوا للرسل. **وقد عارضوا دعوة نوح** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ورفضوها بشبهٍ متعددة، منها: أنه بشر مثلهم، وكانوا يظنون أن الرسل لا بد أن تكون من الملائكة، وهذا ظن باطل، فحكمة الله تقتضي أن يكون المُرسَل من جنس المُرسَل إليه حتى يقتدوا به ويستفيدوا من معاشرته وسيرته. **ومن شبههم:** أن أتباعه والمؤمنين به أناس ضعفاء ومساكين ومن أصحاب الحرف والمهن الدنيئة، ولا يوجد فيهم الكبراء والعظماء، مما جعلهم يزهدون في دعوته. **والأراذل:** جمع أرذل، وهم سفلة الناس ومن لا أخلاق له، ولا يبالي بما يقول

ولا ما يقال له[1]. **وبادي الرأي فيه قولان**[2]، **الأول**: أن الأراذل اتبعوك من غير نظر ولا تثبت، فليس عندهم تأمل ولا تعمق في الفكرة، **والثاني**: أنهم اتبعوك في الظاهر وباطنهم على خلاف ذلك.

ومن شبههم: أنه لا يوجد لديه هو والمؤمنون به مميزات يمتازون بها عنهم تدفعهم إلى اتباعهم، ثم أضربوا عن الشُبه السابقة كلها، وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن الدليل والبرهان ليبقوا على ما هم فيه من الرياسة الدنيوية، **فقالوا**: بل نظنكم كاذبين فيما تدعوننا إليه[3]، ولذلك امتنعوا من الإيمان به وبدعوته.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾، **فرد نوح** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على شبهاتهم باستفهام تقريري، فأخبروني إن كنت على برهان من ربي في النبوة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها، فإن ما ذكرتم من شبهٍ لا يمنع من صدق رسالتي التي منحني الله إياها رحمة من عنده، فخفيت عليكم تلك البينات والحجج والبراهين التي تدعو إلى الإيمان بسبب إعراضكم عنها وعدم تدبركم وتأملكم فيها[4]!، فإذا كان الله لم يفتح لها أبصاركم فتروها، ولم يشرح قلوبكم لها فتهتدوا بها؛ فإننا لا نستطيع أن نلزمكم بالهداية ونكرهكم عليها، وأنتم

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 163).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 47).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 560).

(4) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 399).

مُعرضون عنها غير قابلين لها، والاستفهام إنكاري[1]. وهذه قاعدة معروفة في الدعوة عند كل الرسل ، فمهمتهم البلاغ والتوجيه والإرشاد، أما هداية التوفيق فهي بيد الله يمنحها من يشاء.

وفي الآية إشارة إلى قاعدة نفسية، وهي أن من كره شيئًا ابتعد عنه وعن الاستفادة منه، وهي قاعدة مُطّردة في الأشخاص والفنون، **فمثلاً**: إذا كرهت علم النحو، فلن تتقنه حتى ولو كان شرح الأستاذ جيداً. وقل ذلك في غيره من الفنون والعلوم. وإذا كرهت الشيخ أو المدرس فلن تتقن وتفهم ما يدرّسه لك ولو كان تدريسه جيداً. فلا بد إذن من تحبيب الفن وتحبيب المدرس الذي يدرسه إلى نفسك إذا أردت أن تفهمه وتتقنه. وقل مثل ذلك في مُدرّسي التحفيظ، فإذا رأيت طالبًا يكره المدرس؛ فاعلم أنه لن يحفظ على يديه بإتقان، وهكذا...، فلا بد أن تحبب الفكرة إلى نفسك حتى تفهمها، وتحبب الشيخ والأستاذ المربي إلى نفسك حتى تفهم عنه وتستفيد منه.

وقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾، **وأخبرهم** أنه لا يطلب منهم مالاً على تبليغه الرسالة لهم ودعوتهم إلى الإيمان، بل ينتظر أجره من الله، وهذه قاعدة مطردة عند جميع الرسل؛ فإنهم لم يطلبوا مالاً ولا أجراً على دعوتهم لأقوامهم، وهكذا يجب أن يكون كل الدعاة إلى الله فهم ورثة الأنبياء. **وأخبرهم** بأنه لن يطرد المؤمنين من الضعفاء الذين معه، فقد أقبلوا على الله

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 51).

وآمنوا به قبل الأغنياء والأثرياء، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، حتى يجلسوا معه،كما طلب كفار قريش من محمد ﷺ أن يطرد عنهم الضعفاء ويجعل لهم مجلساً خاصاً بهم(1)، فهؤلاء المؤمنون صائرون إلى ربهم وملاقوه يوم القيامة، ليجدوا ثواب إيمانهم عنده سبحانه. **ثم أخبرهم** بأن طلبهم هذا دليل على جهلهم بهذا الدين وأسسه، وأنه دين العدل والمساواة، وجهلهم بسنن الله في إرسال الرسل، وعمومية رسالتهم للفقير والغني والضعيف والقوي! ووصفهم بالقوم يدل على أن جهلهم صفة لازمة لهم كأنها من مقومات قوميتهم(2).

وقوله: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ ﴾، ولو استجبت لطلبكم وطردتهم؛ فمن يُنقذني من عذاب الله، لأنه سيغضب لهم وسيُعاقبني لأني ظلمتهم بالطرد عن الخير الذي أقبلوا عليه، والاستفهام تقريري(3)، أفلا تتعظون فتتركوا الكِبر وتقسيم الناس إلى طبقات، وتتواضعوا لله حتى يدخَل الإيمان إلى قلوبكم؟!.

وقوله: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ ﴾، أخبرهم أنه بشر مثلهم، أوحى الله إليه بالرسالة، ولكنه لا يملك خزائن أرزاق

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 317).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 56).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 165).

الله، ولا يدعي أنه يعلم الغيب، ولا يدعي أنه ملك من الملائكة، ولا يستطيع أن يقول لمن معه من المؤمنين المستضعفين الذين يحتقرونهم ويعيبونهم: لن يعطيهم الله خيراً ولا أجراً ولا ثواباً على إيمانهم؛ لأنهم ضعفاء، فهذا القول باطل، بل الله أعلم بما في نفوسهم من الإيمان والإخلاص له[1]، فيجازيهم على ذلك بالأجر العظيم في الآخرة، ويرفع الله مكانتهم في الدنيا وإن كانوا فقراء!، ولو فعلت بهم ما تطلبونه مني؛ لكنت في عِداد الظالمين لأنفسهم.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾، يخبر الله عن قوم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين أصابهم التذمر والضجر، ودمغتهم الحجج[2]؛ فطلبوا من نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يتوقف عن جدالهم ويأتيهم بالعذاب الذي وعدهم به، وقد استعجلوا نزوله استهزاء به وإنكاراً له، حتى جعلوا نزوله بهم علامة على صدقه، سبحان الله! كيف يكون حال البشر حين تنتكس فِطرهم، وتضعف عقولهم عن التدبر فيما يقال لهم من حجة وبرهان، فيطلبون ما يضرهم ويستعجلون هلاكَهم بأنفسهم.!!

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾، أخبرهم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن أمر هلاكهم ونزول العذاب بهم مردّه إلى الله، فهو وحده الذي يأتيهم به متى شاء وكيف شاء، وليسوا بفائتين ولا هاربين[3] من عذاب الله لو نزل بهم.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 562).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 60).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 56).

وقولــــه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾، ثم أخبرهم أنه قد بذل لهم ما يملك من النصح والإرشاد، واجتهد في دعوتهم، وأن انتفاعهم من النصيحة لن يكون إلا بتوفيق الله لهم إلى قبولها، فإن هداية التوفيق إلى الحق بيد الله وحده، وأنهم قد يحرمون هداية التوفيق بسبب إعراضهم وكِبرهم وتعاليهم عن سماع الحق والتأمل في الحجج والبراهين الدالة عليه، فيحصل لهم الضلال عن الحق بعد وضوحه لهم، عقوبة من الله لهم[1]، فهو ربهم الذي يملك أمرهم، فإن شاء هداهم إلى الحق فضلاً منه، وإن شاء أضلهم عنه عدلاً منه، والخلق جميعًا راجعون إليه يوم القيامة، فيُحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

وقولــه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾، للمفسرين في هذه الآية قولان[2]، القول الأول: أنها جملة اعتراضية، والخطاب فيها لكفار قريش الذين اتهموا محمداً ﷺ بأنه افترى القرآن، وفائدة ذلك أن هذه القصص والأخبار عن نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن يعلم بها محمد ﷺ، فدل ذلك على أن القرآن وحي من الله إليه.

والقول الثاني: أنها ليست اعتراضية، بل خبرٌ عن نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فإن قومه اتهموه بأنه افترى النبوة والدعوة إلى التوحيد من عند نفسه، وهذا هو الراجح للسياق، ولا يوجد ما يمنع ذلك، والمعنى: إذا كنتم تظنون أني اخترعت لكم

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 62).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 564).

هذا القول من عند نفسي ولم يأمرني الله به؛ فعليّ جزاء ما فعلت من الذنب العظيم، وأنتم بريئون منه، وأنا بريء مما تفعلون من الكفر والشرك والمعاصي، وكلٌ منا يأخذ عقاب عمله، ولا يتحمل وزر الآخر.

وقولـه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وبعد تسع مائة وخمسين سنة من البذل والعطاء والتضحية في الدعوة إلى الله والبلاغ المبين وتنويع الأساليب، أوحى الله إلى نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه لن يُؤمن به من قومه بعد الآن أحد، وكانوا قلة، ونهاه عن الابتئاس وهو الحزن[1] عليهم بسبب كفرهم وإعراضهم وتكذيبهم له.

وقولـه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾، وأمره الله أن يصنع السفينة برعاية الله وحفظه له، ومرأى منه، ووفقًا للتوجيهات والتعليمات التي يعطيها الله له لصناعة السفينة[2]؛ لأنه لم يكن يعلم كيفية صناعتها من قبل، فهو أول من صنع السفن بأمر الله له، ونهاه الله عن الشفاعة لقومه الظالمين لأنفسهم بالكفر حين ينزل بهم الهلاك، فقد انتهت فترة الإمهال وحق عليهم الهلاك، وسيُغرقهم الله جميعًا بالطوفان[3] ولن يُبقي منهم أحداً، فقد حق عليهم القول، ونفذ فيهم القدر!.

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 50).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 319).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 174).

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - بيان أن من سنن الله في الرسل أن يستجيب لهم الضعفاء والفقراء قبل الأغنياء والرؤساء.

2 - بيان أهمية استعفاف الداعية عن أموال المدعوين، وفضل دعوتهم مجانًا، وانتظار الأجر من الله.

3 - بيان أن دين الله عام للفقير والغني، والضعيف والقوي، وأنهم أمامه سواء لا فرق بينهم.

4 - بيان أن الأنبياء لا يعلمون الغيب.

5 - مشروعية المجادلة للمخالف بالتي هي أحسن.

6 - بيان شفقة الأنبياء والرسل على أقوامهم، وضرورة اقتداء الدعاة بهم في ذلك.

تفسير المقطع الرابع من سورة هود

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا
فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ
عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ
وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ
فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ
وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ
سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ
وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي
وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ
رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ
إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ
ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ
أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن
مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ
إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾، وبدأ نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يصنع الفلك كما أمره الله، فصنعه من الخشب والمسامير، فكان كبار قومه يمرون عليه فيستغربون منه، ويستهزئون ويسخرون من فعله، واعتبروا ما يقوم به عملاً لا داعي له، فلما أكثروا عليه من السخرية؛ أخبرهم بأن سخريتهم منه وممن آمن معه دليل على سفه عقولهم وجهلهم بالله وبما يصلح حالهم، ولذا فنوحٌ ومن معه يستغربون ويسخرون من موقفهم هذا مثلما استغربوا وسخروا من صنعه للسفينة[1]، فحالهم هذا أولى بالسخرية منهم.

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾، **ثم هددهم بقوله:** فسوف تعلمون من هو المحق من المبطل حين ينزل بكم الهلاك، ويحل بكم الغرق، فيصيبكم الخزي والهوان في الدنيا بسبب ذلك، وينزل بكم عذابٌ مستمر في الآخرة[2]، وهو عذاب جهنم الذي لا ينقطع عنهم.

قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾، فلما انتهى نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من صنع السفينة؛ انتظر حتى صدر أمر الله بإغراقهم، وظهرت له علامة بداية الهلاك بفوران الماء من التنور، **وللمفسرين في معناه أقوال عدة**[3]،

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 170).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:699).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (2/ 472).

منها: إنه التنور المعروف الذي يُخبَز فيه الخبز، **وقيل**: إن المقصود به ظهر الأرض كلها، **وقيل**: إن المقصود به الأماكن المرتفعة من الأرض، **والراجح الأول**؛ لأنه ظاهر النص، وهو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأشهر من معانيه عند العرب[1]، فإذا وجد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه العلامة؛ فليبادرْ إلى أخذ ذكرٍ وأنثى من كل حيوان في الأرض وليحملهم على السفينة، حتى يبقى بهما النسل، وأمره أن يحمل معه على السفينة أهله، واستثنى من أهله من كان كافراً، وهم زوجته وولده، لأنه قد سبق القدر من الله بأنهما من الأشقياء الهالكين مع الكفار، وأمره أن يحمل معه في السفينة كل المؤمنين به، وقد كانوا قلة، **قيل**: ثمانون شخصاً، **وقيل**: أقل من ذلك[2]، رغم أنه مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الإيمان، ويحذرهم من الكفر والطغيان، ونوَّع لهم الأساليب الدعوية، فلم يؤمنوا به، لأن الهداية بيد الله وحده.

وقولـــــه: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾، **وقال نوح** عَلَيْهِ السَّلَامُ **للمؤمنين معه**: اركبوا داخل السفينة، متبركين باسم الله، أو قائلين: بسم الله[3]، لكي تسير بهم السفينة على بركة الله وإذنه، وفي حفظه ورعايته، أثناء جريانها على سطح الماء، وأثناء رسوها وتوقفها[4] على الأرض، فإن الله غفور لمن تاب وأسلم وركب في السفينة، ورحيم بالمؤمنين فلم يُغرقهم، فالمغفرة

(1) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 321).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 59).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:700).

(4) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص:177).

لذنوبهم بعد التوبة والإيمان، والرحمة بالنجاة لهم من الغرق.

وقولـــه: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾، **ثـم وصـف الـسفينة** وهـي تجـري بركابها في وسط موج كالجبال المرتفعة من شـدته وعظمتـه، وهـذا يـدل علـى أن طوفـان المـاء قـد غطـى الأرض كلهـا وارتفـع فـوق الجبـال، وأن الريـاح كانـت تحركه بقوة، فكـان يـضطرب اضـطراب المـوج في البحـار[1]، وفي تلـك اللحظـة الشديدة أدركت نوحـًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شفقة الأبوة[2]، فنادى ابنه، وكان قد اعتزل دين أبيه، واعتزل السفينة وابتعد عنها[3] إلى مكان آخر هربـًا مـن الغـرق، فـدعاه إلـى ركوب السفينة معه، وأن يبتعد عن مصاحبة الكافرين.

وقولـــه: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾، فلـم يقبـل الولـد النصيحة من أبيه، وحكّم عقله، وظـن أن صـعوده إلـى جبـل مرتفـع سيمنعه مـن الغرق، **فقال له أبوه:** لا شيء اليوم يعصمك في هذه الأرض مـن الغـرق[4]، لكـن من قدّر الله له النجـاة مـن الغـرق برحمتـه فهـو المعـصوم[5]، ولكنـه قـدّم تفكيـره بعقله القاصر على الخبر الصحيح الذي أخبره به أبوه، وفصَلَ بينهما الموج أثناء

(1) ينظر: التحرير والتنوير (12/ 74).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:382).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 174).

(4) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 323).

(5) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 397).

الحوار بسبب قوته، فهلك الولد الكافر بالغرق مع قومه.

وقولــــه: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾، وبعد أن هلك القوم الكافرون، أمر الله الأرض أن تبلع الماء الذي على ظهرها بسرعة، وأمر السماء بأن تمسك الماء الذي ينزل منها[1]، فانفتحت في الأرض فتحات فدخل الماء منها إلى جوف الأرض وذهب ماء الطوفان من سطحها وتلاشى، وانتهى أمر إغراق القوم الكافرين وتحقق وعد الله فيهم، وعادت الأرض صالحة للحياة كما كانت عليه قبل الطوفان، ورست السفينة واستقرت على جبل الجودي، وهو اليوم في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل[2]، **وقيل**: هلاكًا وخسارة وبُعداً لهم من رحمة الله[3]؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر بالله، والقائل لهم ذلك يجوز أن يكون هو الله، ويجوز أن يكون هم المؤمنين[4]، وقالوا ذلك على سبيل الدعاء عليهم، والتعبير بلفظ: "البعد" كناية عن التحقير والكراهية لهم[5].

وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾، **ونادى نوح** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **ربه قائلاً**: إن ابني من أهلي الذين وعدتني

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 323).

(2) ينظر: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة: (ص:93).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 325).

(4) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 433).

(5) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 79).

بنجاتهم[1]، ووعد الله حق لا يتخلف، وهي توطئة بين يدي الدعاء وتذكير بأن الله قد وعده أن يُنجي أهله، ثم فوض الأمر إلى الله؛ لأنه حكم عدل يضع الأمور في مواضعها، ولا مُعقَّب على حكمه، وهل ناداه بعد الغرق أو أثناء الغرق؟ **قولان للمفسرين**[2]، **قيل**: ناداه أثناء الغرق يُريد إنقاذه، **وقيل**: ناداه بعد الغرق يريد المغفرة والرحمة له، والسياق يرجح الأول.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾، فردّ الله على نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ دعواه بأن ابنه من أهله، وبيّن له أنه ليس من أهله، وإن كان ابنه من صلبه، فهو ليس على دينه، بل كان كافراً بالله، والكفر عَملٌ غيرُ صالح[3]، فدل على أن لفظ "الأهل" الذين وعد الله نوحًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بنجاتهم ليس عامًا، بل هو مخصوص بالمؤمنين منهم، فالقريب الكافر لا يدخل في النجاة؛ لأن النجاة مشروطة بالإيمان، ثم نهاه الله عن سؤاله عن أمر لا يعلم صوابه من خطأه، فلا يليق به وهو نبي أن يفعل ذلك، ثم وعظه بأن لا يسلك مسالك الجاهلين، وليس في ذلك وصف له بالجهل، بل فيه ملاطفة وإكرام له[4].

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾، **اعترف نوح** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بخطئه، واستعاذ بالله، والتجأ

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 570).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (2/ 475).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 326).

(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:701).

إليه، واعتصم به من الوقوع في مخالفة أمره، وسؤاله لشيء لا يعلم حكمه. ثم طلب من ربه أن يغفر له خطأه ويرحمه؛ لأنه إن لم يغفر له ويرحمه، فهو من ضمن الخاسرين الذين خسروا أجرهم وثوابهم العظيم في الآخرة، وقد استجاب الله دعاءه وغفر الله له.

ودلت الآية على أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن عنده علم بأن سؤاله ربه نجاة ابنه محرّم، وبعد الحوار مع ربه تبيّن له أنه داخل في المنهي عن الدعاء والشفاعة لهم[1].

وقد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية على جواز وقوع الصغائر من الأنبياء؛ لأن المغفرة لا تكون إلا لذنب[2]، **والراجح** أنه ليس في الآيات ما يقتضي صدور ذنب أو معصية من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، سوى إقدامه على سؤال ما لم يُؤذن له فيه، وهذا ليس بذنب ولا معصية[3].

وقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾، **وقال الله لنوح** عَلَيْهِ السَّلَامُ: انزل من السفينة أنت ومن معك من الآدميين وغيرهم، وانتشروا في الأرض، مصحوبين بالسلامة والأمن، قد حلّت عليكم البركات، وهي الخير الدائم المستمر، فنزل هو ومن معه من المؤمنين، ومنهم أبناؤه الثلاثة، ومن تناسل منهم. **وهذا الوعد**

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:383).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (18/ 358).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 488).

يعمّ جميع المؤمنين إلى يوم القيامة[1]، **وأما من كفر وأعرض منهم** فسوف يمتع في الدنيا بالأرزاق والنعم، ولكنه متوعد بعذاب أليم شديد في النار يوم القيامة.

وفي الآية تعريض بالمشركين من العرب، فإنهم من ذرية نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم يتبعوا سبيله، فأشعروا بأنهم من الأمم التي سيمتعهم ثم يمسهم عذاب أليم[2].

وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾، **اسم الإشارة** يعود إلى ما سبق ذكرُه من قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه، ونحوها من القصص، فهي من أخبار الغيب التي أخبر الله بها محمداً ﷺ بواسطة الوحي، ولم يكن هو ولا قومه من كفار قريش يعلمون بها قبل أن يوحي الله بها إليه.

وفي الآية دليل على أن القرآن من عند الله؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يعلم ذلك قبل الوحي[3]. **ثم أمره بالصبر** على أذى قومه والدعوة والبلاغ المبين لهم، كما صبر نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على قومه، وأخبره أن العُقبى الحسنة والنهاية الطيبة في الدنيا والآخرة له ولمن آمن بالله واتقاه[4]. **وفي هذا تسلية للنبي** ﷺ، وتهديد ووعيد لكفار قريش.

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 179).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 91).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:702).

(4) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 182).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن من عادة الكفار الاستهزاء بالصالحين والسخرية منهم.

2- بيان أن سنة الله تعالى في الخلق أن الأكثرية كفار، والقليل هم المؤمنون.

3- بيان أن نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أول من صنع السفن، وتعلمت البشرية من بعد ذلك.

4- بيان شؤم عقوق الوالدين وعدم طاعتهم.

5- بيان أن الأنبياء لا يملكون الهداية التوفيق لأقرب الأقربين إليهم، وأنها بيد الله وحده.

6- بيان فضيلة ومكانة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومن ركب معه في السفينة، فإن الله بارك فيهم وفي ذريتهم المؤمنين.

تفسير المقطع الخامس من سورة هود

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ
قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن
قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ
عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟
فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى
هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ
أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ
أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ

تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، **يذكر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات قصة قوم هود، وهم عادٍ الأولى، فقد أرسل الله إليهم هوداً عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقد كانوا يسكنون الأحقاف، وهي الآن منطقة في صحراء الربع الخالي بين عمان واليمن والسعودية[1]، **والأُخوة هنا** أخوة النسب، لا أخوة الدين[2]، فقد أرسله الله ليدعوهم إلى التوحيد وترك الشرك وإفراد الله بالعبادة، ويبيّن لهم أنه لا إله يُعبَد بحق إلا الله، وأنهم مفترون على الله الكذب في إشراكهم بالله، فإن كل الآلهة التي اتخذوها من دون الله باطلة.

وقولـــه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾، كرّر لهم المخاطبة بلفظ: "يا قوم"، لاستعطافهم وتأليف قلوبهم لقبول النصيحة، وأخبرهم أنه لا يطلب منهم على دعوته لهم إلى الإيمان أجراً مادياً منهم، بل ينتظر الأجر من الله وحده الذي خلقه وأوجده على غير مثال سابق، وهو الذي

(1) ينظر: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة: (ص:20).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 444).

يرزقه فلا يحتاج إلى عطائهم، ثم سألهم سؤالاً استنكارياً لعدم تعقلهم[1]؛ لأنهم لم يستخدموا عقولهم في التفكر والتأمل في الآيات الكونية والشرعية، ولو فعلوا ذلك لدلّتهم إلى الحق والصواب.

وفي الآية دليلٌ على مجانية الدعوة، وأنه كان أمراً متفقاً عليه بين كل الأنبياء والرسل، فكلهم كانوا لا يأخذون على دعوتهم أجراً من أقوامهم، ويجب أن يقتدي بهم في ذلك العلماء والدعاة وطلبة العلم في كل زمان.

وقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾، وأمرهم أن يطلبوا المغفرة من الله لذنوبهم السابقة، ثم يتوبوا إلى الله من ذنوبهم المستقبلية، فيُقلعوا عن الكفر إلى الإيمان، ووعدهم على ذلك بإنزال الأمطار المستمرة المتتابعة عليهم في أوقات الحاجة، وكانوا قد مُنعوا المطر حتى ذهبت محاصيلُهم واشتد عطشُهم[2]، ووعدهم بأن يزيدهم قوةً إلى قوتهم، فقد كانوا مشهورين بالقوة البدنية وقوة العتاد والعُدة وكثرة الأولاد، ونهاهم عن الإعراض عن الإيمان، والاستمرار على الإجرام، وهو فعل الجريمة، وأعظمها جريمة الكفر والشرك بالله.

وفي الآية دليلٌ على أن الاستغفار والتوبة سبب لنزول الأمطار، وزيادة القوة[3].

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 95).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 182).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:702).

وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾، فردّ عليه قومه: ما جئتنا بحجة ولا برهان يضطرنا إلى الإيمان بك، وهم كاذبون في ذلك[1]، فقد ثبت في الحديث: **"ما من الأنبياء نبيّ إلا أُعطي من الآيات ما مثله أومن، أو آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أني أكثرهم تابعًا يوم القيامة"**[2]. وهذا نص عام في جميع الأنبياء، بأن كل نبي لديه بيّنة ومعجزة على صدق نبوته، فقد تكون معجزة حسية أو معنوية. ثم صرّحوا بعدم تركهم عبادة الأصنام والأوثان لمجرد أنه أمرهم بذلك، وأنهم غير مصدقين له في ذلك.

وقوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾، تطاولوا عليه واتهموه بأنه مخبول العقل، قد أصابته الآلهة بشيء من الجنون[3] بسبب اعتراضه على عبادتها، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده، وهذا قولٌ قبيح يدل على فساد فِطرهم وانتكاستها، فاتهام أصحاب الحق والفكر الصحيح، والدعاة إلى توحيد الله والإيمان به، بأنهم مجانين؛ لا يصدر إلا من قلب منحرف وفطرة منتكسة!. فرد هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على هذه التهمة بقوله: إني أُشهد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأُشهدكم كذلك، أنني بريء من عبادتكم غير الله وشرككم به، وقد طلب منهم الشهادة

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 445).
(2) صحيح البخاري: (9/ 92)، برقم: (7274).
(3) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 360).

على براءته من شركهم، مع أنها غير مقبولة منهم لعدم عدالتهم، تهكمًا بهم واستهانة بحالهم(1)، ثم تحداهم جميعًا أن يفعلوا به ما يريدون من الأذية والسوء ولا يُمهلوه لحظة من الزمن، وهذه من أعظم آيات الرسل، أن يكون الرسول وحده، وأمته مجتمعة عليه، فيتحداهم جميعًا مع آلهتهم أن يمسوه بسوء، ثم لا يستطيعون أن يضروه بشيء(2)، فهذه معجزة له بلا شك ولا ريب.

وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾، ثم بيّن سبب هذا التحدي لهم، بأنه قد فوض أمره إلى الله ربه ورب الخلق أجمعين، وأنه اعتمد عليه، فثقته بالله عظيمة، لأنه من توكل على الله كفاه، ثم بيّن لهم شيئًا من قوة الله وعظمته، فإن جميع ما يدبُ على الأرض من الحيوان مقهور بسلطان الله وأمره، والناصية شعر مقدمة الرأس، والأخذ بالناصية كناية عن الذل والخضوع، فقد كان من عادة العرب إذا أسروا شخصًا أن يأخذوه من ناصيته، فإذا أطلقوه قصّوها، علامة على قهره وذلّته(3).

وفي الآية إشارة إلى أن كفار قومه ممن يدبّ على الأرض، فهم مقهورون كذلك بأمر الله وسلطانه، ثم بيّن لهم أن الله حكم عدل، وأن شريعته مستقيمة عادلة؛ فلن يسلّط الله الكفار الظالمين على عباده المؤمنين(4).

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 68).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 58).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 573).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 101).

وقولـــــه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ٥٧﴾، فإن أعرضتم عن الإيمان والتوحيد وبقيتم على الشرك، فقد أبلغتكم ما أرسلني الله به إليكم، وثبتت عليكم الحجة، فإذا أهلككم الله بسبب كفركم، فسيأتي بقوم مؤمنين غيركم يخلُفونكم في دياركم وأموالكم، ويعبدون الله وحده، ولا تضرون الله شيئا بكفركم وإعراضكم، بل تضرون بذلك أنفسكم، فإن الله لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، إن ربي حافظٌ ورقيب ومهيمن على كل شيء، فلا تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم(1).

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٨﴾، ولما جاء موعد هلاكهم المُحدد لهم في اللوح المحفوظ، وصدر الأمر بعذابهم، نجّى الله رسوله هوداً عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه من المؤمنين، وكانت نجاتُهم بسبب رحمة الله لهم، فقد هداهم إلى الإيمان الذي كان سبباً للنجاة، ونجّاهم من عذاب الدنيا، وهو الهلاك بالريح الصرصر التي أرسلها الله عليهم، ونجاهم من عذاب جهنم في الآخرة، ووصفه بأنه عذاب غليظ؛ لأنه أغلظ من عذاب الدنيا وأشد منه(2).

وقوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ٥٩﴾، وتلك؛ إشارة إلى قبور قبيلة عاد وآثارهم، فانظروا إليها واعتبروا بها(3)، فقد

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 68).
(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 405).
(3) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 490).

أهلكهم الله بسبب أنهم أنكروا الحجج والبراهين التي جاءهم بها هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعصوه وكفروا به، ومن كفر برسول واحد فقد كفر ببقية الرسل، وتركوا اتباع رسولهم، واتّبعوا كل متكبر قاسي القلب، ومعاند لا يقبل الحق ولا يذعن له، من كُبرائهم ورؤسائهم، وقد كان التجبر والعناد من خُلق قوم عادٍ لقوتهم[1].

وقوله: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾، فلما أهلكهم الله بالعذاب الدنيوي، أُلحقت بهم اللعنة، لا تفارقهم في الدنيا ولا في البرزخ، وتبقى معهم إلى يوم القيامة، ثم تدخل معهم إلى جهنم، بسبب كفرهم بالله وإعراضهم عن دينه، فقد أبعدهم الله عن الرحمة والخير وحرمهم منهما، **والمقصودون بهذا اللعن والهلاك** هم عاد قوم هود، للتفريق بينهم وبين عاد الثانية، وهي عاد إرم ذات العِماد[2].

وقولــــه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾، وأرسل الله إلى قوم ثمود أخاهم من النسب، صالحاً عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكانوا يسكنون في جزيرة العرب بين تبوك والمدينة، **وتُسمى منطقتهم الآن** بمدائن صالح، وتبعد عن مدينة العُلا بخمسة وعشرين كيلو متراً[3]، فدعاهم إلى الإيمان وعبادة الله وحده لا شريك له، فهو الإله الحق الذي لا إله للخلق سواه، وبيّن لهم فضله عليهم،

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 182).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 406).

(3) ينظر: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة: (ص:241).

فهو الذي خلقهم من تراب الأرض، باعتبار أصل خلقة أبيهم آدم وهم من نسله[1]، **وفي ذلك تذكير لهم** بأصلهم حتى لا يفتخروا على غيرهم، وجعلهم عمّاراً للأرض بالزراعة والبناء ونحوها، والسين والتاء للمبالغة في ذلك، فقد كانوا أصحاب زرعٍ وبناءٍ[2]، وأمرهم أن يطلبوا من الله المغفرة لما سبق من ذنوبهم، وأن يقلعوا عن الشرك والكفر ويتوبوا منهما، فإن الله قريب يجيب دعوة من دعاه، وأقبل عليه بصدق وإخلاص.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾، فردّوا على نصيحته لهم بالاستهزاء به، وأنهم كانوا يظنونه رجلاً عاقلاً قبل أن يطلب منهم ترك الكفر وعبادة غير الله، فلما نهاهم عن ذلك ودعاهم إلى الإيمان بالله خاب رجاؤهم فيه[3]، **وهذه هي طبيعة أعداء الرسل** قديماً وحديثاً، فأنت رجل طيب ومقبول لديهم ما دمت معهم على الباطل، فإن استقمت على الحق وتركت الباطل اتهموك بكل نقيصة وسوء، **ثم سألوه سؤال تعجبٍ واستنكارٍ**، لماذا ينهاهم عن عبادة الأصنام والأوثان التي كان آباؤهم يعبدونها؟! وأخبروه أنهم في شك وريب عظيم من صحة ما يدعوهم إليه من الإيمان بالله وإفراده بالعبادة، والريبة هي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة عنها[4]، **وهكذا هي طبيعة النفوس** التي تعبد غير الله تعالى، لا تقبل الحق ولا

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:706).
(2) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 108).
(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 576).
(4) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 70).

تشعر بأهميته، بل تنفر وتشك فيه؛ لتعوّدها على الباطل واعتمادها على التقليد، وتركها التأمل والتفكر في الحجج والبراهين الدالة على وجوب الإيمان بالله وتوحيده.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾، فردّ عليهم صالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بسؤال تقريري لهم، هل علمتم بأني تركت عبادة الأصنام وآمنت بالله وحده؟! لأنه أعطاني الحجة الدلالة على توحيده وبطلان الشرك، ومنّ عليّ بالرسالة، فإن الرسالة رحمة واصطفاء من الله، فهل يليق بي بعد ذلك أن أخالف أمر الله وأترك طاعته؟! فمن يمنعني وينجيني من عقوبته لو عصيته؟! كما أن طلبكم مني عبادة غير الله، وترك الإيمان به والدعوة إليه، لن ينفعني لو استجبت لكم، بل لن يزيدني إلا ضلالاً وبُعداً عن الخير، وما تزيدونني بما تقولون إلا بصيرةً بخسارتكم وضلالكم[1].

وقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾، وكانوا قد طلبوا منه آية ومعجزة تدل على صدقه، فأعطاهم الناقة آية ومعجزة دالّة على صدق نبوته، **والإشارة بهذه إلى الناقة** حين شاهدوا انفلاق الصخرة عنها، وإضافة الناقة إلى اسم الجلالة تشريفًا لها، لأنها خُلقت بقدرة الله الخارقة للعادة[2]، **وأمرهم** أن يتركوها تأكل

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 458).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 113).

من نبات أرض الله الذي أنبته لها بالمطر، وليس عليهم من مؤنتها وعلفها من شيء، وأمرهم أن يبتعدوا عن أذيتها، ولا يمسوها بسوء، حتى لا يصيبهم الله في الدنيا بعذاب شديد قريب زمنه وهو ثلاثة أيام[1]، لا يتأخر عنهم لو فعلو ذلك.

وقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥)﴾، فلم يقبلوا نصيحته، وخالفوا أمر ربهم، وسارعوا إلى عقر الناقة، **وقد عقرها** قُدار بن سالف[2]، **ويُلقّب** بأُحيمر ثمود، وكان أشقى القوم، **كما قال الله تعالى:** ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾[الشمس:12]، وكان ذلك عن رضى منهم[3]، **والعقر هو** ضرب سيقان البعير حتى يسقط ثم يُنحر بعد ذلك[4]. فلمّا عقروها استحقوا العذاب الذي وعدهم به نبيهم، **فقال لهم نبيهم صالح** عَلَيْهِ السَّلَامُ: استمتعوا بالعيش وانتظروا هلاككم في مساكنكم بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة[5]، فذلك وعد صادق كائن لا محالة، ولن يتخلف، بل يقع كما أخبر الله به.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦)﴾، **فلما كان صبيحة اليوم الرابع** جاءهم العذاب الذي وعدهم الله به، فنجى الله صالحاً والمؤمنين معه من ذلك العذاب، حيث رَحِمَهُمُ اللَّهُ ووفقهم للإيمان الذي كان سبباً لنجاتهم، ونجاهم من

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 576).

(2) ينظر: تفسير بن عطية: (5/ 218).

(3) ينظر: تفسير القرطبي: (9/ 60).

(4) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (2/ 754).

(5) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 70).

الهوان والهلاك الذي أصاب المكذبين، **وذيّل الآية** باسميه القوي العزيز؛ لأن هلاك المكذبين ونجاة المؤمنين أثر من آثار قوة الله وعزته سبحانه.

وقوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾، وأهلك الله قوم ثمود الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب بعذاب الصيحة، فقد صاح بهم جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ صيحة شديدة حتى تقطّعت قلوبُهم في صدورهم[1]، فسقطت أجسادهم على الأرض، والتصقت وجوههم بالتراب، وهلكوا في مساكنهم ليلاً، فأصبحوا فيها موتى، وانتهت حياتهم وكأنهم لم يعيشوا في هذه الدنيا، ولا تمتعوا فيها برغد عيش، ثم ذكّر الناس بحالهم وسبب هلاكهم وهو الكفر بالله، لكي يتعظ به من يسمعه من كفار قريش وغيرهم، ثم دعا عليهم بالبُعد وهو الطرد من رحمة الله، تحقيراً لهم وتحذيراً من سلوك سبيلهم، واستفتح الدعاء عليهم بـ"ألا" التي تفيد التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكّنه منهم[2].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أهمية الاستغفار والتوبة في رفع العذاب، وحصول الخيرات والبركات.

2- بيان أن من عادات الكفار التنفير عن الأنبياء والرسل والدعاة باتهامهم

(1) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 187).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 304).

بما ليس فيهم.

3 – أن أبرز معجزة ظاهرة لهود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي تحدّيه لقومه أن يؤذوه، فلم يقدروا على ذلك.

4 – بيان أن الكفر سببه العناد والاستكبار، ولو تواضع الإنسان لفتح الله قلبه للحق وهداه.

5 – بيان أن من رضي بالذنب فهو كالمشارك فيه.

تفسير المقطع السادس من سورة هود

﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ
حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ
أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾
قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ
مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ
ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ
عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ
بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ
أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ
أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ
بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ
مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا
عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾، **وأخبر الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن قصة الملائكة الذين أرسلهم لهلاك قوم لوط، فإنهم مرّوا على إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبل ذهابهم إلى قوم لوط، وهؤلاء الملائكة هم جبريل وميكائيل وإسرافيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، **وقيل**: معهم غيرُهم[1]. **وقد جاؤوا إبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في صورة بشر، **وهم ضيوفُه الذين ذكرهم الله في قوله:** ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[الذاريات:24]، وقد جاءوا بالبشارة له بالولد[2]، فلما وصلوا إليه ألقوا عليه تحية السلام، ونُصبت على المصدر أو على أنها مفعول به، فكان رده عليهم بالرفع، على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ لخبر محذوف، والرفع أدلّ على الثبوت من النصب[3]، فيكون قد حيّاهم بأحسن مما حيوّه به[4]، ثم لم ينتظر كثيراً حتى جاءهم بعجل سمين حنيذ، وهو المشوي على الأحجار التي تكون تحتها النار[5].

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾، فلما قدّم لهم الطعام وانتظر أن يأكلوا منه، فلما لم يمدوا أيديهم إليه؛ استنكر منهم هذا الفعل[6]؛ لأن الأصل في الضيف إذا قُدّم له

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 384).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:707).

(3) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: (6/ 352).

(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:707).

(5) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 72).

(6) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 64).

الطعام اللذيذ الشهي أن يُسارع إلى الأكل، وقد كان امتناعهم من الطعام لأنهم ملائكة لا تأكل ولا تشرب، وإنما أتوه في صورة أضياف؛ ليكونوا على صفة يحبها، وقد كان يقري الضيوف[1]، وحصل عنده فزع في قلبه حذراً منهم. **والوجس في اللغة:** فزعة القلب[2]، وظهر أثر ذلك عليه، فطمأنوه، ونهوه عن الخوف منهم، فليس لديهم نيّة في إيذائه، **وكان سبب تخوّف إبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن العادة المتعارف عليها في زمنه وإلى اليوم: أن الغريب إذا جاء وأكل من طعامك أَمِنت شره، فإذا لم يأكل منه خشيت منه الشر[3]. واعتذرتْ له الملائكة عن الأكل بإخباره أنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وقد أرسلهم الله لمعاقبة قوم لوط، وأن مجيئهم إليه للسلام عليه وإخباره بذلك.

وقوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾، وزوجته سارة قائمة وراء الستار تستمع إلى الحوار، أو قائمة على خدمتهم[4]، فلما أخبروه بأنهم ملائكة، وأنهم أتوا لهلاك قوم لوط، ضحكتْ فرحاً بهلاك القوم المجرمين لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم، وعنادهم وغفلتهم عن العذاب الذي قد نزل بهم[5]، فلما سمعوا ضحكتها بشّروها بغلام، وهو إسحاق، وسيولد له ولد اسمه يعقوب، ويستفاد من هذا أن الذبيح إنما هو إسماعيل، ويمتنع أن

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 472).

(2) ينظر: تهذيب اللغة: (8/ 4772).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 188).

(4) ينظر: تفسير الماوردي: (2/ 484).

(5) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 394).

يكون هو إسحاق؛ لوقوع البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده[1]؟!.
وخصّت البشارة بزوجته؛ لأن النساء أعظم سروراً بالولد من الرجال، ولأنه لم يكن لها ولد، وكان لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولد وهو إسماعيل[2] عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفي الآية دليل على أن الله هو الذي سماهما بهذين الاسمين.

وقولــــه: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾، فتعجبت واستغربت من البشارة بالولد، وهي امرأة عجوز كبيرة في السن، فقد كان عمرها تسعًا وثمانين، وكان عمر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تسعًا وتسعين، وقت البشارة[3]. **والدعاء بالويل** كلمة تنطق ولا يُقصد معناه، **وقد تقال** للتعجب من الشيء الغريب، وأشارت إلى زوجها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لكونه كان حاضراً، وسُمي الزوج بعلاً؛ لأنه السيد المتصرف في أمور امرأته[4]، ووصفته بأنه رجل كبير في السن، **فكان تعجّبها من البشارة لها بالولد لسببين: كِبر** سنها، **وكِبر** سن زوجها.

وقولــــه: ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾، فردّت عليها الملائكة: أتعجبين من أمر الله وقضائه؟! والاستفهام إنكاري[5]. وإنما أنكرت الملائكة تعجّبها لأنها كانت في بيت

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 334).
(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 72).
(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 62).
(4) ينظر: تاج العروس: (28/ 94).
(5) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 580).

الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات[1]، **أي**: لا يليق بك أن تستغربي من مجيء أمر الله على خلاف العادة، فإنه لا عجب من أمر الله؛ فإن هذا العطاء وغيره لكم مما أكرمكم الله وخصكم به يا أهل بيت النبوة، فرحمة الله بكم ونزول بركاته عليكم متتابعة متكاثرة، وأنتم أهل لها[2]. **وقيل**: إن الملائكة قالت لهم هذا القول على معنى الدعاء لهم بالخير والبركة[3]، فاحمدوا الله على ذلك، فإن الله يحمد من يطيعه، ويوسع العطاء لأوليائه، وهو محمودٌ على كل أفعاله، وذو كمال ومجد ورفعة في أسمائه وصفاته.

وقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾، فلما ذهب عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الفزع والخوف الذي دبّ إلى نفسه بسبب عدم أكل الضيوف طعامه، وسمع البشرى من الملائكة بالولد، وارتاحت نفسُه بذلك، انتقل إلى محاورة الملائكة محاولاً رفع العقوبة عن قوم لوط[4] أو تأجيلها، رحمة بهم وحرصاً على هدايتهم، فقد كان كثير الحلم لا يغضب على من أساء إليه، بل يكظم غيظه ويعفو عن الناس، وكثير التأوُّه والتوبة والتبرؤ من الذنوب، وكثير الإقبال والإنابة إلى الله والعودة إليه[5].

وقوله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾،

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 73).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 122).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 494).

(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:709).

(5) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 124).

ثم خاطبته الملائكة بالتوقف عن الجدال والخصومة في أمر عقوبة قوم لوط، فقد صدر الحكم بهلاكهم من الله ولا رجعة عن تنفيذه، وإن العذاب نازل بهم ولن يُرد عن القوم المجرمين[1]، فاقتنع إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وترك جدالهم، فودّعته الملائكة وذهبوا باتجاه قوم لوط.

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾، ولما وصلت الملائكة إلى منزل لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهم على صورة شباب مُرْد جميلي المنظر، فساءه مجيؤهم إليه خوفاً عليهم من قومه المجرمين، وتمنى لو أنهم لم يحضروا إليه، وضاق بوجودهم ذرعاً، لأنه لا طاقة له في حمايتهم، ولكن خُلُقه ومُروءته دفعته إلى ضيافتهم وعدم تركهم للمجرمين، وقال في نفسه عند رؤيتهم: هذا يوم بلاء وشدة علينا؛ لأنه علم أن قومه لا يتركونهم[2]، وما خطر بباله أنهم ملائكة.

وقوله: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾، فلما عَلِم قومه بوجود ضيوف من الشباب المُردان الجميلين لديه؛ جاؤوا مسرعين إليه مندفعين[3] تعلوهم أصواتهم على عادة المفسدين في الحركة والانتقال، وقد كانوا من قبل أن يأتوا إليه يمارسون الفاحشة، فليست هذه أول جرائمهم، فلما

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 336).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:386).

(3) ينظر: لسان العرب: (8/ 369).

وصلوا إلى داره أرادوا الدخول إليهم؛ فمنعهم لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأغلق بابه دونهم[1]، ووعظهم بأن يتقوا الله ويخافوا عقابه، ويتركوا عمل الفاحشة، ثم دعاهم إلى الزواج من بنات قومه فهنّ أطهر لهم، وسمّى بنات قومه بناته؛ لأن النبي بمثابة الأب لأفراد قومه[2]، ونهاهم عن الاعتداء على ضيوفه في بيته حتى لا يحلّ به الخزي والهوان بين الناس بسبب ذلك، وذكّرهم بأن ما يفعلونه لا يقرّه عقل ولا شرع، وسألهم سؤالاً تعجبيًا استنكاريًا لحالهم، هل يوجد منكم رجل واحد راشد في عقله يمنعكم عن هذه الأعمال القبيحة[3]؟!

وقوله: ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾، **ردّ عليه المجرمون من قومه:** لقد علمت مِن قبل بحالنا، وأننا لا نرغب في الزواج من النساء، وفي معاشرتهن، وأنت تعلم ما نريده، وهو فعل الفاحشة بضيوفه الموجودين لديه[4]، فاتركنا ننفّذ رغبتنا معهم!، فلما عجز عن منعهم بسبب ضعفه وقلة حيلته؛ تمنّى لو كان له قبيلة وعشيرة قوية تحميه من هؤلاء المجرمين، وتدفع عنه شرورهم. **وفي الحديث:** **"يغفر الله للوط، إن كان ليأوي إلى ركن شديد"**[5]. **أي:** إلى الله سبحانه، ولكن لوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قصد بذلك أنه لا عشيرة له.

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 501).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 191).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 583).

(4) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 496).

(5) صحيح البخاري: (4/ 148)، برقم: (3375).

وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾﴾، فلما سمعت الملائكة حوار لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع المجرمين من قومه، أخبروه بأنهم ملائكة أرسلهم الله لإهلاك قومه المجرمين، وطمأنوه بأن المجرمين لن يستطيعوا الوصول إليه، ولا القدرة على ذلك، ثم ضرب جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم[1]، **كما قال:** ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[القمر:37]، ثم أمرت الملائكة لوطًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بأن يخرج بأهله من القرية بعد أن يذهب أكثر الليل، وهو وقت السحر، **كما بيّن ذلك في قوله:** ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾[القمر:34][2]، ونهتهم الملائكة عن النظر إلى ما وراءهم، أو أن يتشاغلوا بما خلفهم من مال وغيره، لكي لا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم، وحتى لا يروا عذاب قومهم، فيرقّون لهم أو يرحمونهم[3]، واستثنيت امرأته من الخروج معه، أو من الالتفات[4]، **والأول أرجح، لقوله:** ﴿إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾[الشعراء:171]، **أي:** الباقين، فقد بقتْ مع قومها ولم تخرج معهم، فأصابها العذاب الذي نزل بهم؛ لأنها كانت معهم على دينهم، وكأن لوطًا سأل عن موعد عذابهم، فردّت عليه الملائكة بأنه سيكون عند انفلاق الصبح، فاستبطأ ذلك، فقالوا له على سبيل التعجب: أليس الصبح بقريب؟!

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 76).

(2) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (2/ 190).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 584).

(4) ينظر: تفسير الماوردي: (2/ 491).

وقولــه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ۝٨٣﴾، فلما جاء وقت الأمر بعذابهم؛ أخذ جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بجناحه القُرى من تحتها ورفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء صراخ الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها على وجهها[1]، ثم أتبعهم الله بحجارة من طين مطبوخ بالنار متتابع عليهم، معلّمة بالعذاب، ومكتوب على كل حجرة منها اسم الذي تصيبه[2]. **وفي عودة الضمير قولان**[3]: **يحتمل** أن يعود إلى الحجارة، فليست بعيدة عن عموم الظالمين!، بل هي تحت أمر الله يهلكهم بها متى شاء، كما حصل الرمي بها لأصحاب أبرهة ونحوهم، **ويحتمل** أن يعود الضمير على قرية قوم لوط، وهي قرية سدوم، وتعرف اليوم بالبحر الميت، ويكون المقصود بالظالمين أهل مكة، فليست بلادهم ببعيده عنها، فإنهم يمرون عليها في تجارتهم إلى الشام، فيرونها ويتَّعظون ويعتبرون بها.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – استحباب تبشير المؤمن بالخير، وإدخال السرور عليه.

2 – مشروعية إلقاء السلام والرد عليه بأحسن منه.

3 – مشروعية إكرام الضيف دون تكلّف.

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:710).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 194).

(3) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 394).

4- بيان مكانة ومنزلة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وزوجته، ودعاء الملائكة لهما بالبركات والرحمات.

5- بيان أهم الصفات التي امتاز بها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي: الحلم، والتضرع، وكثرة الرجوع إلى الله.

6- بيان أهمية وجود القبيلة وأثرها في حماية الداعية إلى الله.

7- بيان فظاعة وقبح عمل قوم لوط، ولذلك كانت عقوبتهم شديدة.

تفسير المقطع السابع من سورة هود

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا
تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ
مُّحِيطٖ (٨٤) وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ
أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ
وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ (٨٦) قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ
أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ
إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَٰقَوۡمِ لَا
يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ
مِّنكُم بِبَعِيدٖ (٨٩) وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ (٩٠) قَالُواْ
يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا
بِعَزِيزٖ (٩١) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي
بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ (٩٢) وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن
يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ (٩٣) وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا
نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ
جَٰثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ (٩٥) ﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾، **وأرسل الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى قبيلة مدْيَن أخاهم شعيباً عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أخوهم من النسب، **وأمره** أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وهي دعوة الرسل جميعاً، فلا إله يُعبَد بحقٍ إلا الله، **ونهاهم** عن التطفيف في المكيال والميزان؛ فقد كانوا يُنقصون الكيل إذا كالوا، ويطففون في الوزن إذا وزنوا، **ونبههم** إلى أنهم لا يحتاجون إلى فعلهم هذا، فهم في خير من الله، فقد أنعم عليهم بكثرة خيرات الدنيا من سعة المال، ورخْص الأسعار، ونحوها[1]، وخوّفهم من أن ينزل بهم عذاب الله فيُحيط بهم فيُهلكهم، ولا يجدون لهم ملجأ ولا مهرباً منه بسبب كفرهم وتطفيفهم في المكيال والميزان، **والمراد به** عذاب الاستئصال في الدنيا، أو عذاب جهنم في الآخرة[2].

وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾، ولما كانت مشكلة التطفيف متجذّرة فيهم؛ لم يكتفِ بنصيحة واحدة، بل نوّع لهم النصائح حولها، فنهاهم أولاً عن إنقاص الكيل والوزن، ثم أمرهم ثانياً بإيفائها من باب التوكيد والعناية بها. والقسط هو العدل، فلا يزيدون في الكيل والوزن فيكون في ذلك ضرر عليهم، ولا ينقصون منهما فيكون في ذلك ضرر على غيرهم. ثم كرّر لهم النصيحة بترك

(1) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 445).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 77).

بخس الناس في أشيائهم. والبخس هو الهضم والإنقاص من الشيء[1]. **وهي نصيحة عامة** تشمل كل شيء، فلا ينقصون إنسانًا شيئًا يستحقه، ويدخل في ذلك إنقاص الكيل والوزن ونحوهما. ونهاهم عن الفساد في الأرض، فقد كانوا يقطعون الطريق. **والعُثُوّ هو** السير والحركة المرتبطة بالإفساد، من عاث يعيث إذا أفسد، ومنه العَثَّةُ؛ وهي الدودة التي تفسد ثياب الصوف[2]. **ومقصود دعوته:** لا تسيروا في الأرض بسيرة المفسدين، بل سيروا فيها بسيرة المصلحين.

وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾، وأخبرهم أن ما يُبقيه الله لهم من الحلال خير لهم مما يأخذوه من المال الحرام، من إنقاص المكيال والميزان وبخسهم الناس حقوقهم[3]، إن كنتم مصدّقين لي فيما أقول لكم وأنصحكم به. وبيّن لهم أنه ليس عليهم بحفيظ يحفظهم من الوقوع في المعاصي، ولا يحفظ عليهم أعمالهم ويحاسبهم بها ويجازيهم عليها[4]، فالله هو الذي يفعل بهم ذلك.

وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾، فلم يقبل قومه منه تلك النصائح، **بل قالوا له:** هل صلاتك التي تصليها لله تعبّداً، أو دينك الذي

---

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 417).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 199).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 447).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 588).

تدين به وأُمرت باتباعه[1]، يأمرك أن تأمرنا بهذه الأشياء؟! والاستفهام للإنكار عليه والاستهزاء به، وإنما عبّروا عن الدين بالصلاة؛ لأنها أعظم شعيرة فيه.

وقولهم: ما علاقة الدين بنهينا عن عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤنا، وبتصرفنا في المال، وضبط الكيل والوزن فيه، هي فكرة العلمانية المعاصرة، وهي فصل الدين عن الحياة، وبهذا يكون قوم شعيب هم أول من أحدث فكرة العلمانية في الأرض، وهذا يدل على جهلهم بمفهوم الدين، وهل الدين إلا عبادة الله وتوحيده، وإقامة الحياة وضبطها وفقًا لشرع الله سبحانه؟! **ثم وصفوا شعيبًا** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه حليم رشيد، **وفي معناها قولان**[2]: **أحدهما: يحتمل** أنهم أرادوا بذلك مدحه والإنكار عليه في مخالفته لقومه، **والمعنى**: إن حلمك وعقلك الراشد لا يدعوانك إلى مخالفة قومك، **والثاني**: يحتمل أنهم قصدوا بهذا الوصف الاستهزاء به، من باب تسمية الشيء بضده، فيقصدون به الغاوي الجاهل، والسياق يرجح القول الأول.

وقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾، **فقال لهم شعيب** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربي، وكنت نبيًا على الحقيقة، أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي، فإن الأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟![3]

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (2/ 496).
(2) ينظر: تفسير القرطبي: (9/ 87).
(3) تفسير النسفي: (2/ 79).

وقد أعطاني نِعمًا كثيرة سالمة من الفساد الذي في أموالكم، فقد كان من أهل الثراء والنعم في قومه[1]. **ثم بيّن** أن من مقتضى هذه البيّنة والنعمة التي أنعم الله بها عليه؛ أن يحب لهم الخير، ويختار لهم ما يختار لنفسه، ولا يريد أن يأمرهم بترك شيء ويفعله هو، فإن هذا لا يليق بالداعية الناصح لقومه، بل هدفه من دعوته لهم هو السعي في إصلاح أحوالهم بالنصح والإرشاد لهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يستطيع أن يوفق إلى ذلك إلا إذا وفّقه الله، فالتوفيق بيد الله وحده، وقد فوّض أمره إلى الله، وإليه يرجع في كل ما ينوبه من الأمور، فهو الناصر والمعين له سبحانه، وبالاستعانة بالله والإنابة إليه تستقيم أحوال العبد[2].

وفي الآية الكريمة دليل على أن الداعية يجب عليه أن يكون منتهيًا عما ينهى عنه غيره، مؤتمراً بما يأمر به غيره، وأن يكون الداعية أحد عوامل الإصلاح في مجتمعه، يدلهم على الخير ويُرشدهم إليه، ويُحذرهم من الشر وينهاهم عنه، متوكلاً على الله وحده في كل أموره.

وقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾، وكرّر لهم النداء تلطفًا بهم عسى أن يقبلوا نصحه، **فقال له:** لا يحملنكم عداوتكم الشخصية لي على أن تبتعدوا عن قبول الحق الذي جئتكم به، والإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد[3]. **ثم بيّن لهم** أن الإعراض عن قبول الحق سبب لعقوبتهم بعذاب من الله،

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 527).
(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:387).
(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 346).

مثل العذاب الذي نزل على من سبقهم من الأمم الكافرة، **فقد أهلك الله قوم** نوح بالغرق، **وقوم** هود بالريح الصرصر العاتية، **وقوم** صالح بالصيحة، **وقوم** لوط بالرجم بالحجارة، **وختم** بالتذكير بهم؛ لأنهم كانوا قريبين من **قوم** شعيب في الزمان والمكان والسبب، فهم آخر الأقوام زمانـًا، وأقربهم مكانـًا، ومثلهم بالكفر الذي هو سبب العقوبة لهم(1).

وقوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾، ثم أرشدهم إلى أن يستغفروا الله من الكفر والتكذيب والتطفيف ومن سائر المعاصي، ويتوبوا إلى الله منها، ورغبهم في ذلك؛ لأن الله رحيمٌ بعباده يقبل توبتهم، ويحب المؤمنين التائبين إليه.

وقوله: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾، فقابل قومه نصائحه بالإعراض وادعائهم عدم الفهم لها، مع أن شعيبـًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وُصف في بعض الآثار بأنه كان خطيب الأنبياء(2)، بسبب حسن منطقة ووضوح حجته مع قومه، ولكنهم قصدوا بذلك الاستهزاء به والإعراض عن الاستماع إليه كراهية لما يقول، **ثم وصفوه** بأنه شخص ضعيف ليس من كبراء القوم ولا من رؤسائهم. **وقيل:** أعمى(3)، ولولا خوفهم من قبيلته وعشيرته لرجموه بالحجارة، لأنهم كانوا من أهل ملتهم،

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 589).
(2) ينظر: المستدرك للحاكم: (2/ 568).، برقم: (4071).
(3) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 534).

فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم[1]، أما هو فليس عندهم بممتنع عنهم، بل لا قدر له ولا مكانة عندهم.

وقولــــه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٩٢﴾، واستمر في ملاطفتهم بالنداء، رغم ما صدر منهم من تهديد ووعيد له، وسألهم سؤال توبيخ وتقريع لهم[2]، هل قبيلتي أعز عليكم من الله؟! **فخفتم من القبيلة** ولم تخافوا من الله الذي عزته وقوته أعظم من عزة وقوة البشر كلهم، ونبذتم أمره ونهيه وألقيتموها خلف ظهوركم، ولم تقبلوا الامتثال لها.

وفي ذلك إشارة إلى أنه لم يعتمد على قبيلته في الدفاع عنه، بل هو متوكل على الله القوي العزيز، الخبير بأعمال العباد، فلا يخفى عليه شيء منها. **وأصل الإحاطة**: حصار الشيء من جميع جهاته[3]، وهو الذي يحصيها لهم ثم يحاسبهم عليها، والأسلوب خبري، ولكنه يُفيد التهديد والوعيد لهم.

وقولـه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ۝٩٣﴾، فلما وصل معهم إلى طريق مسدود في الحوار، ورأى إصرارهم على الكفر، وعدم تأثرهم بالموعظة؛ توعدهم بأن يستمروا على ما هم عليه من الكفر والإعراض، فإنه

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 74).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:712).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 152).

مستمر في الدعوة إلى التوحيد والعمل الصالح، وكل واحد يبقى على عمله حتى يحكم الله بينه وبينهم، وسوف يتضح لهم من الذي سينزل به العذاب الذي يُهينه ويُخزيه في الدنيا[1]، وأمرهم أن ينتظروا ذلك وهو سيكون معهم من المنتظرين، وهذا القول منه لهم من باب التنزّل مع الخصم لاكتفاء شرّه، وإلا فهو يعلم يقيناً بأنهم على ضلال، وأن العذاب نازل بهم لا محالة.

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾، ولما جاء أمر الله بهلاكهم بعد أن نفدت سنّة الإمهال لهم؛ نجى الله شعيباً عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ والذين آمنوا معه، بسبب رحمة الله لهم بالهداية إلى الإيمان، الذي كان سبباً للنجاة من عذاب الاستئصال في الدنيا، وأخذت الكفار من قوم شعيب الصيحة بعد أن أظلهم العذاب، فصاح بهم جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ صيحة انخلعت منها قلوبُهم، وسقطوا على وجوههم إلى الأرض، فهلكوا جميعاً[2]، وكأنهم لم يكونوا قد عاشوا في ديارهم قبل ذلك، ولم يمتعوا بشيءٍ من متاعها الذي كانوا يفتخرون به، ثم ختم قصتهم بالدعاء عليهم بالبعد عن الخير كله، والهلاك لهم كما هلكت ثمود قوم صالح، فقد كانوا جيرانهم في الدار، ويشبهونهم في الكفر وقطع الطريق[3].

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 590).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 204).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 348).

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – بيان اتفاق جميع الأنبياء على الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك.

2 – بيان حرمة التطفيف في الميزان والمكيال وبخس الناس حقوقهم.

3 – بيان فضيلة الرضا بالحلال ولو كان قليلاً، ففيه البركة.

4 – بيان أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثره في إصلاح المجتمع.

5 – ذم الجهل وعدم الفقه في الدين.

6 – ذم من اشتغل بعيوب الناس وترك عيب نفسه.

7 – بيان أهمية العلاقة الحسنة من الداعية بالقبيلة والعشيرة وأثر ذلك في حمايته.

تفسير المقطع الثامن من سورة هود

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ
فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ
ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ
ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ
أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ
تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا
يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾، **يُخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه قد أرسل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالمعجزات والبينات، وهي الآيات التسع:** العصا،

واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وأخذهم بالسنين المجدبة، والنقص في الثمرات، **وأما السلطان فهو** الحجة الواضحة والبرهان الصحيح التي كان يقوله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ويجادل به فرعون حتى يُسكته[1]، فجمع الله له بين الآيات الحسية والحجج والبراهين النظرية؛ لكي يقيم الحجة عليهم ويقطع عنهم العذر، وخص فرعون وملأه بالذكر؛ لأنهم القادة والرؤساء المتبوعون من غيرهم، وإلا فرسالة موسى عامة لكل من كانوا في مصر من الفراعنة وبني إسرائيل، ولكن كبار القوم أعرضوا عن اتباع الحق الذي جاء به موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واتبعوا أمر فرعون، وساروا على مسلكه وطريقه، ولم يكن مسلكه صواباً ولا رشيداً، بل كان ضالاً غوياً، فلم يدلهم على الحق والهدى، وإنما دلهم على الباطل والضلال.

وقوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾، **في الآية بيانٌ** لنهاية فرعون ومصيره في الآخرة، فقد كان متبوعاً من قومه في الدنيا، فصار قائداً لهم في الآخرة، يقودهم إلى النار وبئس القرار. **والتعبير بلفظ:** "الورود" فيه تهكُّمٌ بهم؛ لأن الأصل فيه هو إيراد الأنعام إلى موارد الماء لتشرب ويذهب عطشها، والنار على الضد من ذلك[2]، **أما هو فقد** أورد قومه إلى جهنم ليُعذبوا فيها، فبئس المشربُ مشربهم، وبئس المنزلُ في جهنم منزلهم.

وقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾، وأهلكهم

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 593).

(2) ينظر: فتوح الغيب للطيبي: (8/ 188).

الله بالغرق، وألحقهم في الدنيا لعنة، فلا يُذكر فرعون وقومه فيمن أتى بعدهم إلا مذمومين، وستتبعهم اللعنة إلى قبورهم وتحشر يوم القيامة معهم، وتدخل معهم إلى جهنم. والرفد هو العطاء والصِلَةُ[1]، وكل شيء جعلته عونـًا لشيء فقد رفدته به[2]، فبئس العون والعطاء الذي زيد لهم فيه، وذلك لأنّ اللعنة في الدنيا والآخرة كانت رفداً للعذاب ومدداً له[3]. **وقد قيل لهم** هذا على سبيل التهكّم؛ لأن الرفادة لا تكون إلا في العطاء الحسن، فاجتمعت عليهم لعنة الدنيا وعذاب الغرق، ولعنة الآخرة وعذاب النار.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾، **"ذلك"**: إشارة إلى ما تقدّم ذكره من قصص الأنبياء مع أقوامهم من أهل القرى التي أهلكها الله، والتي قصّها الله على نبيّه ليخبر بها الناس للعظة والعبرة، وتلك القرى المُهلكة منها ما زالت آثاره قائمة، كقوم صالح، ومنها ما اندثرت آثاره ومُحيت معالمُه فلم يبقَ منه شيء[4]، فصار كالحصيد.

وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾، لم يظلمهم الله حين أهلكهم بالعذاب، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك به فاستحقوا الهلاك،

---

(1) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (2/ 475).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 77).

(3) ينظر: الكشاف: (2/ 402).

(4) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 198).

فلم تدافع عنهم تلك الأصنام والأوثان التي اتخذوها آلهة وعبدوها من دون الله، ولم تنفعهم بشيء حين قضى الله بهلاكهم وحلّ نزول العذاب بهم، وما زادتهم تلك الآلهة المزعومة إلا هلاكًا وتدميراً وخسارة[1]؛ لأن سبب هلاكهم ودمارهم كان بعبادتهم لتلك الآلهة[2].

وقولـه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾، وكما فعل الله بتلك القرى من الهلاك بسبب كفرها وشركها بالله؛ سيفعل مثله بنظائرهم وأشباههم وأمثالهم من الكفار. والتشبيه في الكيفية والعاقبة، **وفيه** تعريض وتهديد لمشركي العرب[3]، فإن عذاب الله وعقوبته لأهل الشرك موجعة، وبطشه بالظالمين شديدٌ. **وفي الآية** دعوة لكل ظالم بالمبادرة بالتوبة، وأن لا يغتر بسنّة الإمهال[4].

وقولـه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣﴾، وفيما ذكره من قصص هلاك الأمم الماضية بسبب تكذيبها علامة وحجة وعِظة وعبرة لمن اعتبر بها، وخصّ ذلك بمن يؤمن بالآخرة ويخاف عذابها بالذكر؛ لأنهم هم الذين يعتبرون بالعبر، ويتعظون بالمواعظ دون غيرهم[5]، **ثم وصف الله يوم القيامة** بأنه يومٌ يجمع الله فيه الخلق أجمعين بين

(1) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 472).
(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 349).
(3) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 160).
(4) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 83).
(5) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 594).

يديه من آدم إلى آخرهم من أجل الحساب والجزاء، وذلك اليوم يومٌ عظيم تشهده الملائكة والخلق كلهم، ولا يغيب عنه أحد[1].

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ١٠٥﴾، **وقد أخّر الله موعد يوم القيامة** إلى أجل محدد ومكتوب في اللوح المحفوظ، لا يعلمه أحد إلا الله، فإذا جاء يوم القيام؛ حشر اللهُ الناس وجمعهم بين يديه للحساب، فلا تجرؤ نفس على الكلام إلا بإذنه، فجميع الخلق ساكتون؛ لأن الموقف في تلك اللحظة عظيم ورهيب. **ولا تعارض بين هذه الآية وقوله:** ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾[النحل:111]؛ لأن يوم القيامة يوم طويل وله أحوال مختلفة، **ففي بعض الأحوال** لا يقدرون على الكلام لشدة الأهوال، وفي بعض الأحوال يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون[2]، ثم يفصل الله بين الخلق بحكمه العدل، فينقسمون بعد ذلك إلى فريقين: الأشقياء؛ وهم الكفار المجرمون الذين ماتوا على الكفر في الدنيا، والسعداء؛ وهم المؤمنون المتقون.

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾، ثم بدأ بتفصيل حال الأشقياء؛ لأن العِظة والعبرة بحالهم أكثر، فمن كُتبت عليهم الشقاوة من الخلق ووقعوا في الكفر وماتوا عليه، فمصيرُهم إلى النار ومأواهم ومقر إقامتهم

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:390).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 503).

فيها، وينالهم من شدة عذابها ما يجعلهم يعيشون فيها بين زفير وشهيق، والزفير هو خروج النَفَس من الجوف، والشهيق دخولُه إلى الجوف[1]، ويصدر ذلك من الإنسان حين يكون مكروبـًا متألمـًا حزينـًا لا يكاد يُخرج صوته إلا مع زفرة أو شهقة، ويبقون في جهنم خالدين فيها لا يخرجون منها أبداً، وعبّر عن ذلك بديمومة السموات والأرض بناءً على معهود العرب في الخطاب، فإنهم إذا أرادوا الإخبار عن شيء بالدوام والاستمرار شبّهوه بدوام بقاء السموات والأرض[2]. **وفي معنى الاستثناء أقوال كثيرة**[3]**، أرجحها أحد معنيين، الأول**: أن الاستثناء عائدٌ على عصاة المؤمنين الذين يدخلون النار، فيبقون فيها فترة للتطهير ثم يشفع فيهم فيخرجون منها.

والثاني: أن الاستثناء لا يقصد به حقيقة معناه في اللغة، وإنما ذُكر على طريق التأدب مع الله تعظيمـًا له فكل شيءٍ بأمره، **ورجّح الأول الطبري**[4]. **ثم عقّب الله على ذلك** بأنه يفعل ما يشاء في الخلق، ولا يُسأل عما يفعل سبحانه.

وقولـــه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾، **ثم أخبر عن مصير السعداء في الآخرة**، وأنهم

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 481).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 557).

(3) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 402).

(4) تفسير الطبري: (15/ 484).

يدخلون الجنة ويبقون فيها مخلّدين لا يخرجون منها أبداً، **وفي معنى الاستثناء عدة أقوال**[1]: **أقربها أحد معنيين، الأول**: أن المقصود به العصاة الذين كانوا في جهنم قبل أن تنالهم الشفاعة فيدخلون الجنة، فهؤلاء خلودهم في الجنة منقوص بمقدار الوقت الذي مكثوه في جهنم.

والقول الثاني: أن الاستثناء لا يقصد به المعنى اللغوي له، بل ذكرت المشيئة للتبرك، **ورجّح الطبري الأول**[2]، **ثم ذيّل ذلك** بأن عطاء الله لا ينقطع لأهل الجنة، ونعيمُهم لا ينتهي.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ١٠٩﴾، **الخطاب لرسول الله ﷺ، والمقصود به** أمته، فإن النبي ﷺ لا يشك في أن الكفار على باطل، **والمعنى**: لا تشكّوا أيها المؤمنون في فساد وبطلان ما عليه الكفار من الشرك وعبادة غير الله، فقد ورثوا ذلك عن آبائهم وأجدادهم بالتقليد لهم[3]، وليس لديهم حجة ولا برهان على ذلك، **وإن الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيُحاسبهم على ذلك يوم القيامة، ويُعطيهم نصيبهم من عذاب الآخرة وافياً لا نقص فيه، لأن الله لم يستأصلهم كما استأصل الأمم السابقة، ببركة دعاء النبي ﷺ وصبره عليهم[4].

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 402).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 489).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:716).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 169).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الهدف من ذكر قصص الأمم السابقة في القرآن هو العظة والعبرة منها.

2- بيان نهاية رؤساء وزعماء الباطل، فإنهم يقودون من اتّبعهم إلى النار ويسبقونهم إليها.

3- بيان أن الآلهة التي تُدعى من دون الله لا تنفع من يعبدها ولا تضر من ترك عبادتها.

4- بيان أن الناس ينقسمون في الآخرة إلى صنفين: أشقياء؛ مخلّدون في النار، وسعداء؛ مخلّدون في الجنة.

5- بيان بطلان ما عليه الكفار من الشرك وعبادة غير الله، ونهي المؤمنين عن الشك في ذلك.

تفسير المقطع التاسع من سورة هود

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)
وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا
تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ
ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ
الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ
وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ
الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ
مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ
الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ
وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾، **يُخبـر الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنـه أنزل على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كتاب التوراة، فاختلف فيه بنو إسرائيل، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر به، ثم جرى الاختلاف بعد ذلك بين المؤمنين به، وحصل التحريف للتوراة، وتنوعت نسخها ولم تُحفظ كما حُفظ القرآن الكريم. وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ، بسبب تكذيب قومه له، ولولا أنه قد سبق في علم الله وقضائه أنه لا يُعجّل العذاب لمن استحقه في الدنيا؛ لعاقب قومه المكذبين به، **ولكن سنّة الإمهال** اقتضت أن يتأخر الفصل بينهم وعقوبتهم إلى يوم القيامة. **وقيل:** إن الضمير يعود إلى الذين اختلفوا في التوراة، والأول أرجح؛ لأن الذين كذّبوا بالتوراة أُهلكوا في الدنيا عاجلاً، ولم تؤخّر عقوبتهم إلى الآخرة[1]. وإن كفار مكة لفي شك عظيم من القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، أو أن قوم موسى لفي شك من التوراة، بناءً على القولين السابقين، ووصف الشك بأنه مريب لشدته وتوكيد وقوعه منهم.

وقولـه: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾، وإن كلا الفريقين المتبعين للقرآن والمكذبين به، أو المتبعين للتوراة والمخالفين لها، ليُتمَّنّ الله تعالى لهم جميعاً يوم القيامة جزاء أعمالهم كاملة لا نقص فيها، وكل شخص يأخذ حقه كاملاً من الأجر والثواب، أو من العقاب والجزاء، بحسب ما يستحقه، **"ولمّا" في معناها أقوال كثيرة، أحسنها** أنها بمعنى "إلا"

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 568).

الاستثنائية[1]. **وختمت الآية** ببيان أن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، والجملة خبرية ولكنها تُفيد التهديد والوعيد لهم.

وقوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾، **ثم أمر اللهُ رسولَه محمداً** ﷺ وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة والاستمرار عليها وفق ما أمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وقد كانت هذه الآية ونحوها نصب عين النبي ﷺ، وكانت شديدة الموقع من نفسه[2]، حتى أنه سُئل عن الشيب الذي ظهر فيه، **فقال** ﷺ: **"شيّبتني هودٌ وأخواتها"**[3]. **وفي معنى الحديث أقوال، والراجح منها:** أن سبب الشيب هو هذه الآية من سورة هود؛ لأن الاستقامة كما أمر الله أمرٌ صعب التنفيذ بدقة، فكان النبي ﷺ حريصاً أن لا يقع منه شيء من التقصير والخلل فيه، فأدّى ذلك إلى ظهور الشيب عليه بسبب كثرة الهمّ في تنفيذ الأمر بالاستقامة كما أمر الله دون زيادة ولا نقصان. **والخطاب لرسول الله** ﷺ ولمن آمن من أمته واستجاب لدعوته. ونهاهم عن الطغيان وهو مجاوزة الحد في فعل الشر، أو التجاوز في العبادة على خلاف الأمر، فلا يبتدعون فيها ولا ينقصون منها؛ لأنه العبادة مبنيّة على التوقف، فالزيادة فيها تجاوز، والنقص منها تساهل. **وفي الحديث:** "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 600).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (5/ 30).

(3) سنن الترمذي:(5/ 255)، برقم: (3297)، المعجم الكبير للطبراني: (6/ 148)، برقم: (5804)، حديث أبي الفضل الزهري: (ص:286)، برقم: (256)، وإسناده حسن لغيره.

النبي ﷺ؟! قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: **"أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"**[1]. **وفي الحديث:** **"هلك المتنطّعون"**[2]، **وهم** الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم، لأن المتشدد لا يثبت على الاستقامة في الغالب، والثابتون على الاستقامة غالبًا هم المعتدلون اعتقاداً وسلوكًا وأعمالاً، وهم الذين يحققون مقصدهم من الاستقامة، **وفي الحديث:** **"القصد، القصد تبلغوا"**[3]، بخلاف المتشدد والمتساهل فإنه لا يبلغ مقصده. ثم وعظهم الله بأنه مُطّلع على أعمالهم وأحوالهم لا يخفى عليه شيء من ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾، ثم نهاهم عن الركون إلى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، وعدم الاستئناس برفقتهم والعمل معهم ودعمهم ومناصرتهم، أو الاعتماد عليهم. **والركون في اللغة:** هو المحبة والميل والسكون إلى الشيء بالقلب[4]. **وبيّن** أن ثمرة هذا الميل وجزاءه هو الإصابة بعذاب النار الأليم في الآخرة، وتخلّي الله عنه وفقدانه لولايته ونصرته، ولن يجد من دونه من ينقذه

(1) صحيح البخاري: (7/ 2)، برقم: (5063).

(2) صحيح مسلم: (4/ 2055).برقم: (2670).

(3) صحيح البخاري: (8/ 98)، برقم: (6463).

(4) ينظر: تاج العروس: (35/ 110).

من عذابه. **وسُمي** الإنقاذ من النار نصراً؛ لأن به يتم التخلُّص من العذاب الذي هو بمثابة الهزيمة والخسارة العظيمة، ويشمل هذا النهي عموم الظلمة والفُسّاق والمجرمين من الكفار والحكام الظلمة الذين يحكمون بلاد المسلمين وغيرهم من الظلمة وعصاتهم، فالمسلم الظالم لغيره لا يُؤيّد ولا يُناصر على ظلمه، وإنما يُناصَح، فإن أبى قبول النصح، فيُبتعَد عنه ويُهجر، ومن ناصر الظلَمة من الحكام وغيرهم، واقترب منهم ليُعطوه منصباً أو مالاً أو نحوها من المصالح؛ فهو شريك لهم في الظلم، وأقبح من ذلك أن يكون من يناصر الظلمة ويركن إليهم من المنتسبين إلى العلم الشرعي، فهؤلاء علماء سوء يُزينون للظلمة ظلمهم، ويخدعون العامة بهم، ومن ركن إلى ظالم وتعلّق به؛ وُكل إليه وخسر بسبب ذلك التأييد والنصر الإلهي له. وفي الآية تهديد ووعيد لمن ركن إلى الظلمة، أو رضي بأعمالهم، أو أحبهم، فكيف بحال الظلمة أنفسهم[1].

وقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ ﴾، **ثم أمره الله** أن يستمر في إقامة الصلاة، وأن يأمر أمتّه بذلك، والمقصود بالصلاة؛ الصلوات الخمس المفروضة[2]، **فمعنى طرفي النهار:** الصباح والمساء، **والزُّلفة** هي القُربة، **والمقصود بها هنا** الساعة القريبة من دخول الليل، فصلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف، وزلفاً من الليل، وهو وقت صلاة العشاء[3]، فمن حافظ عليها في يومه وليلته

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 506).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 212).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 204).

أذهبتْ ما فعل من صغائر السيئات في نهاره كله، **ويُؤيده حديث**: **"أرأيتم لو أن نهراً في باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"**[1]. **وقد جاء في الحديث**: "أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأُنزلت عليه هذه الآية، فقال الرجل: أليَ هذه؟! قال: **لمن عمل بها من أمتي**"[2]. **وعلى هذا** فتكون هذه الآية مدنية في سورة مكية، **ومن قال**: إن النبي ﷺ قرأها عليه لبيان الحكم بعد أن أعلمه الله بها في مكة، فتبقى السورة كلها مكية. ويدخل في تكفير السيئات إحسان الوضوء، وصلاة نافلة بدون سهو، **ففي الحديث**: **"من توضأ فأحسن وضوءه، ثم صلى ركعتين لا يسهو فيهما، غُفر له ما تقدم من ذنبه"**[3]. **ويلحق بالصلاة** في تكفير صغائر السيئات كل العبادات والطاعات، فمن فعل طاعة بعد سيئة فإنها تمحوها، **كما في الحديث**: **"اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"**[4]. ولو فعل العبد طاعة، ثم فعل بعدها معصية، **فهل السيئات يُذهبن الحسنات؟!**

الجواب: الردة عن الإسلام هي السيئة التي تُبطل ما قبلها من الحسانات، ما لم

---

(1) صحيح البخاري: (1/ 112)، برقم: (528).

(2) صحيح البخاري: (1/ 111)، برقم: (526).

(3) سنن أبي داود: (1/ 238)، (905)، شرح السنة للبغوي: (4/ 149)، (1013)، وإسناده حسن.

(4) مسند أحمد: (35/ 284)، برقم: (21354)، سنن الدارمي: (3/ 1837)، برقم: (2833)، سنن الترمذي: (3/ 423)، برقم: (1987)، وإسناده صحيح.

يتب الإنسان منها قبل الموت، أما باقي المعاصي فإنهن لا يُبطلن الحسنات، ولكن يُؤثرْن عليها، ويُضعفْن إيمان المسلم، فإذا كثُرت السيئات أطبقت على القلب وصار منحرفًا والعياذ بالله. ثم ختم الله الآية بالتنبيه إلى أن محو السيئات بفعل الحسنات موعظة يتّعظ بها من وفّقه للذكرى من عباده المؤمنين.

وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾، **وأمر الله نبيّه** ﷺ بالصبر، **والخطاب له ولمن آمن به**، ويشمل ذلك جميع أنواع الصبر الواجب، الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على الابتلاءات، وأخبره أن الله لا يُضيع أجر من أتقن عمله وأخلصه لله سبحانه، ويشمل ذلك سائر العبادات والطاعات، فإن أتقن العبد العمل وجعله خالصًا لوجه الله؛ أُعطي أجره كاملاً لا نقص فيه، وحُفظ له أجرُ ذلك العمل عند الله حتى يلقاه يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾، **"لولا" هنا بمعنى:** هلَّا[1]، **وهو تعجب وتوبيخ** للكفار الذين سلكوا سبيل مَن قبلهم في الفساد[2]، و**"بقيّة"** لفظ يُطلق على الطاعة والصلاح والفضل الذي يُمدح به الشيء[3]. **ومعنى الآية:** أن كثيراً من الأمم السابقة لم يكن يوجد فيهم أناسٌ صالحون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وكان أغلبهم يُشاركون

(1) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 526).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (11/ 584).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 83).

في المنكر ويفعلونه، فلذلك أهلكهم الله. و"**إلا**" **هنا** استثناء منقطع بمعنى لكن، ولكن وُجد فيهم القليل من المؤمنين الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فأنجاهم الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بسبب ذلك[1]، واستمرأ الظلمة وأصحاب المُنكر الفساد والمعاصي بسبب غناهم وترفهم وطلبهم أسباب العيش الهنيء، واستعملوا نعم الله في معصيته واستمروا على باطلهم، ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونبذوه وراء ظهورهم، وكانوا بفعلهم هذا في عداد المجرمين الذين استحقوا العذاب والهلاك[2].

وفي الآية حثٌّ لهذه الأمة على أن يكون فيها المصلحون القائمون بدين الله، الذين يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون على الأذى.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾، وما صحّ ولا استقام أن يُهلك الله سبحانه أهل القرى بسبب وقوعهم في الشرك وحده حتى ينضم إليه الفساد في الأرض، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم، وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء[3]. فعذاب الاستئصال لا ينزل بأمة من الأمم وهم صالحون في أنفسهم مصلحون لغيرهم، وإنما يُعذبهم بسبب انحرافهم وفسادهم، وهذه قاعدة مُطّردة في كل الأمم، **فإذا توفرت هاتان الصفتان: الصلاح** في النفس، **والإصلاح** للغير،

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 507).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 361).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 605).

سلمت الأمة من العذاب، وقد يوجد في الأمة أناس صالحون، لكنهم لا يقومون بإصلاح المجتمع، فإذا كثُر الخبث فيه هلكوا جميعًا، **وفي حديث زينب** رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: **"يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثُر الخبَث"**[1].

وقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩﴾، ولو شاء الله أن يجعل الخلق كلهم على دين واحد، وهو الإسلام، لفعل، **ولكن اقتضت حكمته أن يجعلهم فريقين:** مؤمنين، وكافرين، ابتلاءً واختباراً لهم، ولا يزال الخلق لذلك مختلفين في عقائدهم وأفكارهم وأهوائهم، **واستثنى من هذا الاختلاف** مَن رَحِمَهُمُٱللَّهُ، فلم يقعوا في الاختلاف الذي يضرهم. وقيّدنا الاختلاف بالذي يضر؛ لأن الاختلاف سنّة كونية في الخلق لا تتخلف؛ لاختلاف العقول والأفهام، ومعلوم أن الخلاف على نوعين: خلاف تضاد وهذا هو الممنوع، وخلاف أفهام، ويدخل تحته خلاف التنوع، وهذا جائز، ولا يمنع من رحمة الله ما لم يُؤدِّ إلى البغي والفتنة والاقتتال بين المسلمين، فإن اختلاف العلماء في بعض المسائل الفرعية لا يخرجهم من الرحمة. **واللام** للتعليل، **وفي معنى اسم الإشارة (ذلك) ثلاثة أقوال**[2]، **الأول:** للاختلاف، **والثاني:** للرحمة، **والثالث:** للرحمة والاختلاف خُلق الناس، وهذا الراجح[3]، فالذين وُفّقوا للحق؛ هم المرحومون، والذين لم يُوفقوا للحق؛ هم المختلفون اختلافًا يضرهم، **والغاية**

(1) صحيح البخاري: (4/ 198)، برقم: (598).
(2) ينظر: تفسير الماوردي: (2/ 511).
(3) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 537).

المطلقة من الخلق هي العبادة، **كما قال:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]، **والمذكور هنا** هو غرض فرعي يدخل ضمنها. وتمت كلمة الله، وهي ما سبق من قضائه وقدره بوعد الله بملأ الجنة والنار من الجن والإنس، **كما في الحديث: "اختصمت الجنة والنار إلى ربهما، فقالت الجنة: يا رب، ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي، أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها"**(1)، فيملأ الجنة بالمؤمنين من الجن والإنس، ويملأ النار بالكافرين من الجن والإنس.

وقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾، **الخطاب لنبيّنا محمد ﷺ، والمعنى:** وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل وأقوامهم نقصّه عليك، ليكون في تلك القَصص تسليةً لك، وتثبيتًا لفؤادك، حتى لا تحزن ولا تتألم من تكذيب قومك لك، فقد كذَّبت الأمم السابقة رسلَها، وتثبيت الفؤاد وتسكين القلب ليس للشك، ولكن كلمّا كانت الدلالة والبرهان أكثر كان القلب أثبت(2). **واسم الإشارة "هذه"** يعود إلى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، وكيف نجّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين(3). **وفي ذلك موعظة وذكرى** لمن يتذكر بها، وخصّ المؤمنين بالذكر؛ لأنهم هم من ينتفع بها، أما الكافر المعرض

---

(1) صحيح البخاري: (9/ 134)، برقم: (449).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 84).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 363).

عنها؛ فلن يستفيد من قصص القرآن ولا مواعظه.

وقولــه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، **ثم أمر نبيّه محمداً** ﷺ أن يقول للمشركين والكفار بعد أن أقام عليهم الحجة: استمروا على تمكّنكم وحالكم التي أنتم عليها من الكفر والشرك بالله، والعمل السيء، ونحن نستمر على مكانتنا وحالنا من الإيمان والتوحيد والطاعة، وانتظروا عاقبة أمرنا، ونحن ننتظر عاقبة أمركم وما يحلّ بكم من عذاب الله وعقوبته[1]، وهو أسلوب تهديد ووعيد لهم، لأن أعمالهم قبيحة ونهايتهم وخيمة.

وقولــه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، **ثم ختم الله السورة ببيان أنه** سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ اختص بعلم غيب السموات والأرض، وخصّ الغيب بالذكر، لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره، وإليه سبحانه دون سواه يرجع أمر تدبير الكون كله في الدنيا والآخرة، ومن كان كذلك كان مستحقاً للعبادة؛ فاعبده ولا تشتغل بعبادة غيره، وتوكّل عليه وفوّض أمرك إليه، وهو تعريض بفساد وبطلان عبادة غيره؛ لأن من لم يكن كذلك لا يستحق أن يُعبد[2]. **ثم نفى الغفلة عن نفسه** سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، بل هو مُطّلعٌ ومراقبٌ وحافظ لأفعال الخلق كلهم، لا يخفى عليه شيء منها، ثم يُحاسبهم عليها يوم القيامة، ويُجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته[3].

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (2/ 606).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 195).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 509).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- وجوب الاستقامة على دين الله، كما أمر الله دون زيادة ولا نقصان.

2- التحذير من الركون إلى الظلمة جميعـًا؛ لأن الركـون إلـيهم خطـرٌ على دين الإنسان وآخرته.

3- بيـان أن الحسنات يُـذهبن صـغائر السيئات، وهـذا مـن فـضل الله عـلى الخلق.

4- بيان أهمية الأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، وضـرورة وجـود مـن يقوم بذلك في كل وقت.

5- بيان أن الهدف من ذكر قصص الأنبياء والرسل في القرآن هو تثبيت قلب النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين.

6- انفراد الله تعالى بعلم الغيب المطلق في الكون.

فهرس المحتويات


لطائف البيان
في تفسير القرآن
تفسير سورتي يونس وهود
تأليف
أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة
أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب
عافق للدراسات والنشر
GAFEQ for studies and publishing